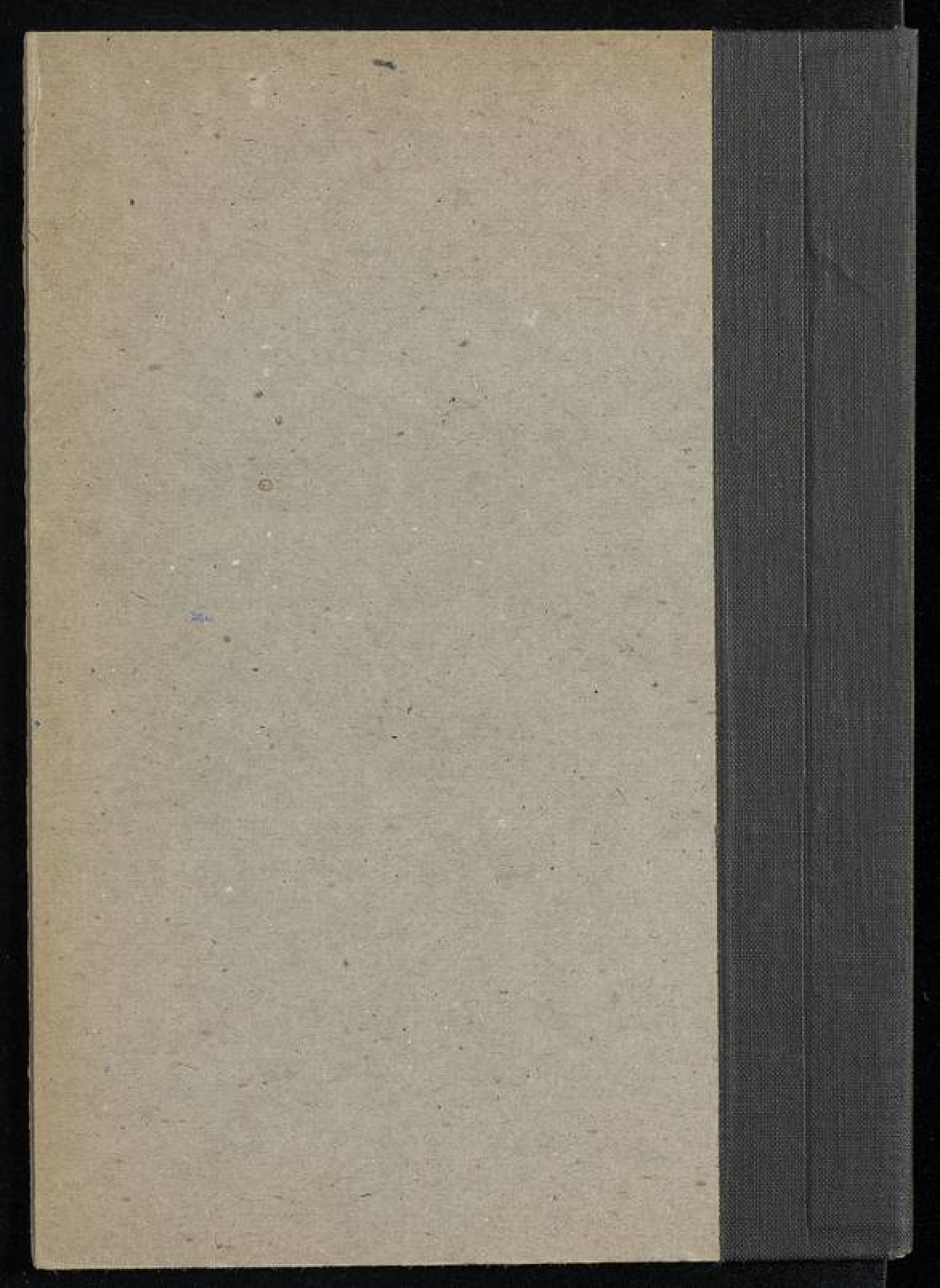


DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
JUN	5 2023		



بيني وبينك

شاكر مصطفى



دار الرواد للتأليف والترجمة والنشر

الطبعة الاولى

دمشق - كانون الثاني سنة ١٩٥٥

هذه الاحاديث من قلبي ،
ولذلك جعلتها : بيني
وبينك .

في الكتاب

أغنيات شاكر مصطفى

بقلم

نزار القباني

أفتكر ، وأنا ادير نقطة هنا وفاصلة هناك وأداري ثيابي من بقع الطيب يعطرني بها شاكر مصطفى ، ما جدوى باب السنديان العتيق والجنينة على مبعدة خطوتين منه .. زهرٌ .. شمسٌ .. وعافية .

ما أسعدني لو تجاوزني الناس .. لو تجاوزوا الباب الخشبي المتكي على مفاصله الملحنة .. الى حوائط مبني من عبير ،

إلى فسقية تتغرغر باغنية . . الى مَدّة عتابا بدأت منـــذ كان الشوق في بلادي ولم تنته بعد . .

ما اسعدني لو دفعتَ الباب ومشيت وحدك . . فالطريق الى الكرم لا تضيّع ابداً . . لا تضيع أحداً . . اتبـع اول نحلة عطشى وهي تدلك على عناقيد تكاد حركة السكر في انابيبها تُسمع . .

أنا إذن – وورائي كوم الاخضر والاحمر – لا اكثر من بطاقة توضع على اضمامة زهر . من لصيقة توضع على حُق طيب في احدى دكاكين العطور في باريس ، من جسر ينتظر خلفه الف موعد مطيّب ، فما أسعد القارىء لو القى نفسه رأساً في احضان قارورة العَبَق . . أعني في احضان شاكر مصطفى .

هذا هو موعدي الاول مع شاكر ، موعد على ضفة محبرة تسبح في مدّها الاسود حياته وحياتي . موعدٌ على حضن حرف فما احلاك يا شاكر ورائحة الحبر تهب في قميصك هبات تتمنى معها الملائكة لو اصبحت دواة .

هل ادركت الآن موقفي في زحمة العناقيـــد . أنني لا استطيع ان اضيف قشة صغيرة ، قشة واحدة الى هذا الكون النسيق الذي عمّره شاكر وحمل له الحجارة بمنقاره ، حجراً ، حجراً ، من مقالع القمر ، ومن نهار عينيه .

لذلك أوثر أن أسمي هذه المحاولة – أغنية لشاكر مصطفى –

لا مقدمة . فأنا – بيني وبينك – لا أؤمن بالدهاليز في الفن . ولا أؤمن بالوساطة ولا الوسطاء . واحلف لك ان الدليل الذي مشى بي الى صورة (الموناليزا) في رواق من اروقة اللوفر قتلني ، وقتل (الموناليزا) نفسها ، بشرحه الذي يردده كالببغاء . ماذا لو تركني هذا الرجل أرى (الجوكوند) بعيني أنا .. وألمّ الكرز بيدي عن جوانب فمها ، حبة حمراء ، وحبة على موعد مع الحمرة .

لا أدري لماذا كلما قرأت قطعةً لشاكر تذكرتُ رقص الباليه دون أي فن آخر . فغليـــان حروفه على الورق ، والتنّوع الذي يطرك به كتقطيع نجوم . والغنى والاناقة التي يقدم بها افكاره ، والزركشات الشعرية التي يضعها في طريقك كالهدايا يقع عليها الاطفال في المدفأة في ليلة عيد الميلاد .. كل هذا يذكرني بلوحات الباليه وبحديث الارجل وهي تلمس خشب المسرح لمساً حنوناً يشبه طيران الفراش الليلي ، وحديث الرسغ والمفصل وصلاة الاصابع وهي تفتح دربها الى الله ، وحوار الاظافر وهي تمسك نجمة وتفلت نجمة .

إن شاكر لا يرمي حروفه رمياً على خشبة المسرح . كل فكرة لديه تعرف موضعها ، وكل نقطة ، كل فاصـــلة تعي دورها وتأخذ مكانها المرسوم لها .. لا فوضى .. ولا مصادفة في أدب شاكر مصطفى وفي كل أدب جيد بل لا مصادفة في الحياة اطلاقا . إن اصغر زهرة تمدّ رأسها الابيض على سور حديقتنا

تكاف الربيع عزلة تسعة اشهر تحت الارض ، بين المخططات ، والاقلام ، وقوارير اللون . فياليتنا نتذكر ونحن نقطع حزم الزهر من حاكورة جارنا ، ونملأ افواه المواقد بحطب المشمش الزمن الذي استغرقته الارض لتُطلع الغصن الذي نحمله في مزهرياتنا زينة ، وفي مواقدنا طعاماً .

وبعد ، فهذا سفير جمـــال يخرج من غابات بلادي بمئزر قدّيس وعصا ساحر . « الكلمة الطيبة » لا تسقط من فمه لأنها جزء من فمه ، والزهور البرية الغريبــة وهي تتمنى لو صارت زاداً في سلته .

و « الكلمة الجميلة » وهي عندي اطيب من الكلمة الطيبة ، لماذا نسيها شاكر ؟ وهي تنكمش برئتيه كالنحلة الشرهة بزهرة غريب ممتلئة وتنفرط حرائق من بؤبؤ عينيــه وانجماً من شق ريشته .

وما هو الأدب إن لم يكن « الكلمة الجميلة » التي لا تفتح أمامك مغالق صخرة « علي بابا » فقط على حد تعبير شاكر وانما تفتح امامك الف نافذه على وجه الله . .

ذلك ان جمال الكلمة جمال الجمالات . والفنون كلها كلمات.. الموسيقي كلمة على فم الوتر . . والتصوير كلمة عـــلى فم اللون . . والنحت كلمة على فم المرمر . . والزنابـق على الربى ، والنجوم في السماء ، والعيون الكبـيرة السوداء . . كلمات تنتظر من يقولها . . وما أشقى النجوم والعيون يوم

لاتجد من يقول لها او يقول عنها شيئاً ! ... ان امتياز الكلمة يأتي من أنها الاداة الطبيعية للتعبير عن المشاعر الانسانية فهي لاتحتال على الوتر كما تفعل الموسيقى وعلى الحجر كما يفعل النحت فالاداة والموضوع في الادب وحدة غير منفصلة ..

(والكلمة الجميلة) أخيراً هي أنا والوجود مجتمعين .. أنا والارض التي أطلعتني ، والانسانية التي تحتاطني ، والجماعة التي اقاسمها حديث النهار وخبز المساء ، ووطني الذي يعيش ورقاً أخضر في ظني وناراً مؤججة في عيوني فما أظلم الذي يسألني بعد ذاك أن تكون الكلمة في حلقي انسانية أو « ملتزمة » على حد تعبير الكلمة الدارجة اليوم ..

ان الكلمة التي اكتب ليست طفلاً بلا نسب .. انها تراث عاطفي اجتماعي انساني يحمل سعال أبي ، ونداء أبي ، وشجار صبيان حارتنا ، وطقطقة خشب الشوح في مخبز ضيعتنا .. وشكوى مزاريب بيتنا القديم التي لا أبيعها بسمفونيات الدنيا مجتمعة ..

الكلمة الطيبة سهلة .. أما (الكلمة الجميلة) فآه ما أصعبها . ان تقول لحبيبتك : عطرك مغر . كلمة طيبة أما أن تقول لها ان لعطرها فماً ينادي . فشيء آخر يتطلب أن تنبش نفسك من جذورها بحثاً عن كلمة صغيرة .. أميرة .. تطفر على الورق فرحة .. كفراشة حرير تحررت من شرنقتها ..

وشوشة صغيرة أريد أن أبوح بها قبل ان اذهب .. وهي

أن شاكر مصطفى ـ من زاويتي انا ـ اول كاهن بشرٌ بنثر في من طراز لم يعرفه تراب بلادي منـذ سنين . فأنا الأدب عندي تعبير غير عادي عن مشاعر عادية فاذا شاركتني هـذه النظرة فانك سترى في ادب شاكر طيباً غير عادى .. طيباً غير الذي تشمه في واجهات المكاتب ، وحوانيت الوراقين ..

ولقد كنت ولا أزال اعطي هدب عيني لحرف جديد لم يدر ببال الابجدية بعـد .. ولم يزحف في جبين انسان ، حرف يتعذب من أجل وجوده عـلى الورق . فاذا أحببتُ شاكر مصطفى فلأنه عرف عذاب الحرف .. ورائحـة الظنون وهي تحترق ..

أحبه لأنه فاتح درب .. شقها بمحراث منحوت من اضلعه ودوزن كل حصاة .. وكل حشيشة فيها ..

* * *

أنا أحب شاكر مصطفى . وهذه الأغنية الـتي كتبتها له ليست مقدمة .. وإنما دعوة إلى حبه ..

لندن ـ بارنز كومون ١٩٥٤/١١/١٠

نزار قباني

بيني وبينك

أليس في خاطرك كلمة تود ان تدفع بها الى شفتيك ؟ اليس في رأسك فكرة، فكرة صغيرة تغلي مع اخواتها غليان العصافير في الشجر عند الصباح ؟

– بلى !

بهذا الاغراء دفعوا بي لأتحدث، بيني وبينك، عن فكرة شاردة في الخاطر، او همسة حبيبة في اللهاة. وانت ايها المواطن، أني كنت،

في قلبي ، انت معي على الدرب ، سواء كنت في المعمل أو الحقل او المدرسة ، وبيني وبينك من علائق الحياة وروابط القربى والفكر ما يجعل رغبتنا في تبادل الحديث تنقلب نوعاً من البث الاخوي السعيد .. حقلك الذي شرق بماء الفرات في الشمال اخو حقلي الذي يتشهى القطر في الجنوب ، وجارك الذي يضرب امرأته كل مساء ، صنو لرئيس ورشتنا الذي يمنعنا عند الظهيرة من الصلاة ، ومأساة ابنك المريض تكررت امس عند خبازنا الذي احترقت دكانه .. والاغنية التي اهتف بها وأنا على النول ، تعلمتها منك ، من زغاريدك انت المحراث .. وحين اتكلم اعرف انك تفهمني ، تشرب كلمتي حتى آخر قطرة فيها ، ان الكلمة التي تصدر من القلب تنفذ الى القلب .. ولن يعرف النصح سبيلا الى لساني ، فلست اكره شيئاً كرهي للحى الناصحين الطويلة ولعصا « شيخ الكتاب » الست تكره النصح انت ؟ أما تبدت لك ملامح الناصح يوماً وقد لبست وجه ذبابة او رقبة جمل .. ان من امثالنا الدارجة ان الله حين فرق الحظوظ لم يرض احداً بما قسمه له واما حين فرق العقول فقد طار كل منا بعقله على اجنحة سبعة نسور .

ولهذا اعلم نفسي دوماً احترام « عقل » الاخرين . احاول ان انظر من الزاوية التي منها ينظرون ، واحذر كل الحذر من ان ادعي الحكمة دون غيري او عمق التجربة دون مبرر ، او ان امد يدي واقول للناس ها هنا الطريق الوحيد ، وانا اعرف ان

دروب الحياة .. لله ما اكثرها .

واعترف بيني وبينك اني ماندمت مرة على فهم الاخرين واني أكثر من هذا كثيراً ماوجدتني على مسافات متفاوتة من الخطأ بالنسبة اليهم . فقلبي على رغمه كالحقل المدود ينمو مع السنبل فيه الشوك والقتاد ، ومع الدرب الى النجم فيه يمتد الف درب ارعن الى الحضيض ..

لا ! ما احببت ان اشبه الاخرين، ما احببت مرة ان ارغم نفسي على الدخول في قوالبهم .. ولكنني اعيش معهم برغمي كما تعيش انت برغمك والقاهم حولي كما تلقاهم انت حولك . يتحركون دون انقطاع وينبعون امـــام عينيك من كل زاوية وينظرون اليك في فضول الحراس ويتسللون الى نفسك ليكونوا جزءاً منك .. انهم عوالم شتى زاخرة .. وانت لاتتحرر منهم وتتصل بهم في وقت معا الا اذا عرفت كيف تفهمهم و كيف تنفرد عنهم .

وانا أومن بعد ان الانسان يصنع نفسه بنفسه . وهو الذي يصوغها حجراً حجراً .. وبعداً لعصا الحظ السحرية ان يكون لها يد في حياتي ، وسحقا للشيطان ان يضلل مجاريها حيث يضل .. لا الحظ ولا الصدفة ولا الشيطان يستطيع تبديل خطوة من خطواتنا او عليه ان يتحمل مسؤولية اعمالنا .. ولكنا مع هذا نرغب في الاختباء من فشلنا ، نغطي وجهنا منه ، وهكذا نجعل الحظ مشجباً نعلق بـــه كل هزائمنا ونقيم من الشيطان صندوق قمامة نلقي عليه بكل اوزارنا . ترى لو ان يدا مسحورة

وهبته القـــوام المادي الكثيف ، البسته الجسد ،أكان شيئاً آخر الانا ،نحن .

لقد ثرثرنا في هذا التقديم ، كثيراً اليس كذلك ؟.

ومع ذلك دع هذا الحديث ،وما يليه ، يكن صلة الروح بيني وبينك.

أؤمن بالفكر الحر

في أعالي رؤوسنا نحن بني حواء وآدم ركبت آلة ندعوها العقل.. ولكنك لاتعلم أنت كما لا أعلم أنا إلا القليل عن تركيبها والنذر اليسير عن نوروناتها واعصابها ونكاد نستوي جميعاً في الجهل بطريقة عملها وآلية سيرها .. ولكنها، هذه الآلة بالذات، هي كل شيء فيك ، وكل شيء في . وهي، كما يقولون ،الشيء الذي من أجله ندعى انت وانا بشراً ، وننتسب الى المجموعة التي

ميزت نفسها ، بحق أو بغير حق ، بين الكائنات باسم ، الانسان !

وليست هذه الآلة بالضخمة . إنها لا تجاوز في الحجم قبضة الكف ولكنها مع ذلك تتناول الكون والافلاك ، في جرمها الصغير ، وما وراء الكون والافلاك . وليس لها من هسيس ولا نأمة . إنها تعمل بأعمق الصمت ، ولكنها مع ذلك ملأت تاريخ الانسان ضجيجاً واحداثاً جساماً . وما يزال لها في كل زاوية من زوايا هـــذا الكوكب الارضي هزيم ، إلا تكن تسمعه الآذان فانه يهز القلوب هزاً ! واخيراً ليس لهذا العقـل من وجود لدى غير الانسان . وتسأل عن سبب تميز هذا المخلوق وحده به فتسمع الشتيت من الردود .. ولن تنتهي التفاسـير إذا نحن طاردناها ما دامت المشكلة قائمة تتحدى والفلاسفـة احياء وذوي ألسنة !

ولعله لا يهمنا من الأمر كله إلا شيء واحد يمكن ان نستخلصه دون كبير عناء ، من ذلك التعقيد الفلسفي هو ان الفكر شيء انساني ، ميزة ، اذا شئت . ولا يختلف احد في هذا طبعاً ولعلهم لا يختلفون ايضاً في الحقيقة الاخرى ، وهي ان الانسان كان إنساناً منذ استطاع تحريك هذه الآلة في رأسه ، على نحـــو يخالف سر مـدية الغريزة وتكرارها الرتيب . وفي فكره الحر يكمن معني إنسانيته ! واذا كان الناس ، حسب هذه الاقانيم الشائعة في العصر الحديث ، يولدون احراراً ، فالفكر منـذ وجد كان ايضاً حراً لان التمرد كان علة وجوده !

واعوذ بنفسي وبكم ان اناقش هنا خبر القضاء والقدر أو ألفباء الميتافيزيك . وإنما اقصد فقط إلى ان اقول: ان الحياة ، في سيرها المتسامي المبدع ، إنما تفر من الآلية ، تكره التكرار المقيم ، وتنزع إلى الخلق ، وان العمل الخلاق غير ممكن إلا مع حرية الفكر والارادة !

إن الوجود الانساني ما قام في الواقع إلا على الفكر الطليق وإنما بدأت انسانية الانسان ، منذ اللحظة التي تمرد فيها على الغريزة والعادة وحقق وجوده الخاص ، أي شعر بفردية المبدع وبكل قلقه !

الاساطير القديمة مملوءة بالرموز إلى ذلك : الاله بروميثوس خالق الانسان عند الاغريق ، احد هذه الرموز : لقد تحدى رب الأرباب زيوس ، وحمل للبشر قبساً من النار المقدسة ، نار الفكر . وعلمهم ايقادها وكانت حراماً عليهم . ولم يبال بعد بالقيود الدامية التي شد بها الى صخور القفقاس ولا بالنسر الذي أوكل اليه التهام كبده .. وفي قصة أبينا آدم رمز آخر للانسان الذي خسر جنات عدن بعمل من اعمال إرادته الحرة فاوجد بذلك قصة الانسانية وما فيها من شقاء التطلع ولظى الرغبة . ويلومون ذلك الأب المرزأ ويسرفون . واسأل نفسي احياناً: ترى لو كنت مكان جدنا . اما كنت اقع في الذي وقع فيه ؟ ارجح ذلك فنحن في الواقع احفاده الامناء ! بفكره الحر . وليس يسير بالانسانية نحو حياة اسمى سوى هذا الفكر الحر

وكل ما في الانسان من خصب وما ابدعه ويبدعه من حضارة وقيم سواء منها غرس البذرة في الارض أو التفكير في وجود الله وسواء بناء الكوخ او فلق الذرة ، إنما هو ثمار ذلك الفكر.. ومن أشواكه ايضاً ! ونستطيع من بعض وجوه النظر أن نختصر تاريخ الانسانيـــة كله بانه ليس اكثر من نضال الفكر لتحقيق ذاته وابداع حياة أسمى واكثر كمالاً .

إن الأسماء الكبرى التي احتفظ بها الناس في التـاريخ ليست ابداً اسماء من مشى مع القطيـع البشري ولكنها أسماء من ند عنه . والاطياف الكبرى التي تهز ذاكرة البشرية ليست ابداً اطياف المقلدين والمحافظين ولكنها اطياف المبدعين الذين عرفوا كيف يقولون لمن حولهم باصرار وحزم : لا !

وكل ما تنعم به انت وانعم به انا وينعم به الناس من تراث إنساني ونعيم مادي وقيم فكرية إنما هو هبة قدمتها لي ولـك وللناس قبضة من المتمردين دفعوا ثمنها من دمهم واعصابهم وكرامتهم ايضا . « إنا في الواقع لنتنفس من الهواء بغير جهد الافكار التي ماتت من اجلها النفوس العظيمة » .. ولو ان معجزة حزفت من التاريخ اسماء الانبياء والمفكرين والعلماء والفنانين والابطال فماذا يتبقى في تاريخ البشر زيادة عمـــا في تاريخ قطيـع من القردة او سرب من الطير ؟ ولو ان ذلـك الرعيل من المبدعين الاحرار : من محمد بن عبد الله والسيد المسيح الى بوذا وكونفوشيوس ، ومن الخوارزمي الى كوبرنيك

ومن ابن تيمية الى لوثر ومن المعري الى فولتير ... لو ان هذا الرعيل ما عرف نور الارض ولا ترابها فماذا تراه يكون هذا الجنس الانساني الذي يزحف على وجه الكوكب ؟

وقد نتصور بعد ان حرية الفكر امر قريب المنال بدليل ان لا شيء يمكن ان يمنع الانسان من التفكير فيما يشاء . وقد يظن المتفائل انه من السهل اقناع الناس بضرورة تلك الحرية وبفائدتها ما دامت عجلة الانسانية تأخذ عصبها من اضـلاع الاحرار . بل لقد نبلغ في التفاؤل حد القناعة بهذه المبادىء التي قررت للانسان منذ سنوات حقه في التحرر من الجهل والخوف ... لقد اصبح ذلك حقاً من الحقوق الطبيعية للبشر. ومع هذا فليس من السهل ابداً الدفاع عن هذا الحق الطبيعي الخصب ، ليس من السهل لانه ، لاعداء اشرس من عداء فكر لفكر ، ولا شيء ابعد عن التمتع بحريته من الفكر المبدع . والتراث الانساني كله كتب بدماء الاحرار اكثر مما كتب بايديهم .

لثورة الفكر تاريخ يحدثنا بان ألف مسيح دونها صلبا

ولعل التاريخ المقبل سيحدثنا عن الآلاف الذين سيصلبون ايضاً .

بلى ! قد يكون الفكر حراً لا حاجز يمنعه من الانطلاق ما دام فقط داخل تلك العلبة العظيمة باعلى الجمجمة ولكنه يستحيل ناراً ودماً متى حاول الظهـور على طرف اللسان او من بين

الاصابع .. لا يمنعك جبار ولا يأبه بمعارضتك احد ما دمت تحتفظ بين خلايا دماغك وشرايينه الشعرية بالذي تريد .. والناس يتركون لك تلك الحرية المؤلمة وكم ودوا بقطع الاكف لو يحرموك منها ، لو استطاعوا لكنهم . يفرضون رقابتهم على لسانك ان ينقل افكارك لغيرك كما تفرض انت بدورك رقابتك عليهم . ويفتن الناس وتفتن انت في التكهن بخفايا الصدور ، ولست بحاجة الى الجهر بالقول لتتهم بجريمة التفكير الحر : إن تعليقا عابراً تقـــوله او تصرفا معينا في بعض الامر ، بل ان سكوتا منك فيه ابلغ الدليل !

ولعله ليس من العسير ان تحلل سر عداء الناس للفكر الحر فقبول فكرة جديدة معناه ان يضطر المرء لاعادة تنسيق « عالمه العقلي » من جديد ، وهو عمل يتطلب المشقة ويقتضي بذل نصيب مؤلم من الجهد الذهني لا قبل لكل امرىء به . ثم ان غريزة المحافظة على الذات يطوقها في النفس سور من الخوف والرهبة ويترجم هذا الخوف عن نفسه بتلك التقاليد الاجتماعية التي تخشى كل جديد وبذلك الاتجاه المحافظ الذي نراه عنـــد السواد . وليس بالسهل ان تخرق ذلك السور دون ان تتعثر بحراسه الملايين !

وأخيراً – وليس آخراً – قد تتعرض مصالح بعض الجماعات أو بعض الطبقات الاجتماعية للخطر اذا قبلت فكرة جديدة في الناس فهم يحاربونها في الحرب الخالدة : تنازع البقاء !

واما وسائل الحرب فألوان وألوان ... اهونها التقاليد وجريمة خرق التقاليد وتتدرج بعد هذا إلى الازدراء والاحتقار كالذي لقيه ليبنتز وابن تيمية بسبب الشيطان الحر الملحاح في رأسيهما وتصل بعد ذلك الى احراق الكتب كما احرقت كتب ابن رشد في قرطبة و كتب فولتير في باريس وتنتهي آخر الامر بالاسكات القسري والخنق والقتل .. ودهن الارجل بالشحوم والتقريب من النار شيئاً فشيئاً !!

وكم اخنقت من فكرة حرة على مثل شفتي ابن حنبل وغاليله ، وكم دخل من دماغ حر الى محاكم التفتيش فخرج شلواً على الاعواد . ولا تسأل اعداء الفكر الحر بعد هذا هل مات ذلك الفكر الذي اسكتوه او خنقوه ؟ انهم لا يدركون إلا متأخرين ، ان النبتة القوية لا تموت ، وان دفقة الحياة المتسامية لا يمكن ان توقف وان الذين اسكتوا الفكر ما اسكتوا غير الشفاه ، والذين احرقوا الكتب ما نالوا غير الورق والذين قتلوا ما فازوا بغير الجسد . ويبقي الفكر الحر لا يمكن ان يسكت او يحرق او يقتل : « ان الخنجر كما قال امير بروتستانتي ، ايام الحروب الدينية ، الخنجر لا يجدي شيئاً ضد الروح » !

ولست اعني من هذا كله بعد ، ان كل فكر حر ، صحيح الرأي والعمل . لا ! وليس من الضروري ابداً ان يكون كذلك . ان الطبيعة تنثر الف بذرة في العراء لتنجح واحدة في مد الجذور بالارض ، وتطلق ملايين البيوض لتفوز باللقاح

بذور معدودة . وكذلك الفكر : يذرى مع كل ريح او يجب ان يذرى ، كما تذرو يد الفلاح السمح قبضة الحب !. لتستقر عليها عمد العمل الانساني .

وماذا على الافكار لو انتثرت ، كما لو افلتت النجوم من يد إله فنان فملأ الكون شموسا وسيارات واجراما من القدر العاشر .. وفوضي ؟

ماذا عليها ، لو انطلقت آلافا في آلاف ، كأسراب الليل او السنونو لتبقى منها جميعا فكرة واحدة ، فكرة صغيرة ، كقلب العصفور الغض ، تقود الانسانية خطوة اخرى ؟

السندباد الذي روى رحلاته الخيالية السبع في الف ليلة وليلة وكريستوف كولومبس كلاهما سواء في القيمة الانسانية النهائية . انهما من طينة واحدة . كل روعتهما في المغامرة الحرة التي ركباها ، الى المجهول .

وسندباد الفكر ، كامن في كل منا ، ولكنه يحتاج فقط الى ان يكون حراً مغامراً ! وماذا ضر الحقيقة يا ترى من تلك المحاولات العديدة التي اصطنعها الانسان القديم مثلاً لتفسير الكون والحياة والرعد والمطر والربيع ، ما دامت احدى التفسيرات هي التي انتصرت في النهاية وبقيت ؟ وأي نظام فكري ، أو سياسي ، او اجتماعي يمكنه ان يدعي العصمة والكمال المطلق ليفرض نفسه على الناس وهو لا يستطيع ان

يضمن لنفسه الابدية والخلود ؟ ولا نصف الابدية والخلود فوق شبر من الارض ..

والافكار الحرة غذاء قدسي ، والحياة وحدها تختار منه قوام كيانها ! حاجة المجتمع وحاجة الروح هي التي تبقى على النبتة القوية وتعصف بالحقير التافه . « فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

إنه لمن غرور الاطفال ان نفترض ان رأينا وحده دون آراء الناس هو الصراط المستقيم ومن المغالاة المسرفة في تقدير قيمة آرائنا الخاصة ، كما قال مونتين ان نحرق بسببها احد الناس حيا ... ومن يبني آراءه على الأمر والتحدي فانما يدل بذلك على ان نصيب العقل فيها ضعيف .

واسمح لنفسي ان اذكركم هنا بذلك الصراع الثقيل الذي قاده الفكر الغربي الحر ضد اللاهوت ورجاله عدة قرون . . عهد طويل زرع بالاشلاء وقضبان السجون ، كما يزرع الخريف الدروب ، بالورق الاصفر ! قبل ان يستطيع رجل الشارع اليوم ان يقول : انا حر !

ومع ذلك فماذا فعلت محاكم التفتيش مع افكار غاليـــلة مثلا ؟

انها ما استطاعت ، بكل ارهابها الأسود وعجلات العذاب فيها وافانين اللهب ان تقنع فكرة واحدة حقة من ان تعبر السنين ؟ الينا ! ان لم تكن بالعكس قد انتحرت بقوتها ! روى (اوسيان)

في اسطورة .. قصة جوبيتر رب الارباب: انه كان يتنزه ذات يوم مع احد الفلاحين وكانا يتناقشان بملء الحرية والمؤالفة في شؤون الارض والسماء وكان الفلاح يصغي في اهتمام ورضى بينما يبذل جوبيتر جهداً مضنيا ليفرض عليه رأيه ، ولما رأى عنده بعض ملامح الشك تلفت حوله بخفة مهدداً بان يساط عليه الرعد ... فصاح الفلاح بسرعة : « ها قد علمت الآن انك مخطىء يا جوبيتر . اني اعرف خطأك على الدوام حين تلجأ الى رعدك ! » .

وهكذا فالفكر لا يقف في وجهه إلا فكر أقوى منه . ولهذا يجب ان تقدس حرية الفكر وخصب حرية الفكر . ولقد تستطيع القوة المادية ان تقف على رأس سيف ولكنها لا تستطيع ان تبقى الى الابد هناك . ظل لويس الرابع عشر يقول « الدولة انا » سبعين سنة ومع ذلك عجز عن ان يلملم من الطرقات تلك الاغاني العنيفة التي قامت ضده . وتهامس الناس برغمه بصلاة اخرى غير الصلاة المعروفة « أبانا الذي في السموات تمجد اسمك .. اعطنا خبزنا كفافنا » لقد كانت الصلاة الاخرى تقول :

أبانا الذي في فرساي ان اسمك لم يعد ممجداً ومملكتك لم تعد على ما كانت عليه من العظم وارادتك لم تعد مفروضة على الارض ولا على الماء .. اعطنا اليوم خبزنا الذي يعوزنا من كافة النواحي .. »

إن الفكر الحر لا يعدم وسيلة التمرد على القيد ، سواء كان ذلك القيد اجتماعيا ، ام دينياً ام سياسيا . والغريب انه لا يأبه للضحايا ... لا يأبه لانه يصبح في لحظة من لحظات التوتر النفسي ، هوى جامحا يستهلك الشخصية كلها . وإذ ذاك تضحى قيمة المرء كلها في كلمة بين شفتيه !. وإذ ذاك يتميز المرء عن الملايين من امثاله بموقف بطولة !.

واما نقيق الضفادع ، ضفادع المستنقع ، حول الاحرار ، واما الايدي المتشنجة التي تحمل حجارة الرجم ، والمخلب الذي يأكل من الصدر والسمعة .. فتلك ! تلك هي الاطار الذي لا بد منه لتدلل الحياة الانسانية على انها في سبيل ولادة بطل !

ضمن هذا الاطار الثائر مثلا عرفنا وجه أبي ذر الغفاري وابن حنبل وابن تيمية ! ووراء دخان المحرقة خلد شبح (برونو) وفولتير .. وبقية الرعيل «الشيطاني » !

وما من حر من الاحرار إلا وقد قيل عنه مثل الذي كتبه ارستو فانيز في مسرحية السحاب عن سقراط : لقد صوره مقيداً الى وتد ووصفه بانه اكبر مفكر ملحد هدام ..

وما من حر من الاحرار إلا وقد واجه الموت كسقراط عينا لعين وقال معه امام المحكمة التي حكمته بالموت في اثينا : « إذا شئتم ان تبرئوني على ان اهجر بحثي في سبيل الحق فاني ساقول لكم : اني شاكر لكم ايها الاثينيون . ولكني افضل

طاعة الله الذي القى على عاتقي هذا العبء على طاعتكم . إنني لا اعرف ايها السادة طعم الموت ولعله شيء جميل ولكني واثق ان تركي رساتي شيء قبيح وانا افضل ما يحتمل ان يكون جميلاً على ما أنا واثق من انه قبيح » !

* * *

وبعد فانا اؤمن بالفكر الحر لاني أؤمن بانه طريق السمو الانساني ، وأؤمن بالفكر الحر لأني أؤمن بانه المنتصر ابداً وأؤمن بالفكر الحر لأني أؤمن بالانسان !

الفرح المنتحر

أنا ، بيني وبينك ، ارثي الوجه الجهم . لا اكرهه ولكني اشفق عليه من يبوسته . وملامحه الي يتقلص بعضها على بعض تغريني ببغض الشتاء . الشفة الجامدة التي تخشى على الابتسام ان تنفطر ، من عادتي ان ازوي حاجبي عنها .. خير لها ان تستقر في الصخر ، ان تجدلها تمثالا من المرمر البارد لتموت . وانا احب الحياة ورقص الحياة بكل شيء ، واحسب ان الله

انما خلق الكون في لحظة من لحظات الفرح وانه سيطويه طي السجل للكتب في لحظة تجهم ، والا فلم يقوى حبنا للارض حين ينطلق فيها الاقحوان ويشيل ويحط اول الفراش وتتفتح الرابية للربيع ؟ ولم النشوة بالحياة حين يستبد بنا الرقص او يهمي الوتر او تنفجر النكتة الموفقة ؟ ولم نحاول النصر على اليأس بكره الدنى واحيانا بالانتحار ؟

وانا أعرف بعد ان الفرح كالتجهم ، انما ينبع من قلبي. انا أصوغه فلا انتظر طائراً من طيور الجنة ان يحمله لي ولا نجمة تحط به عند مخدتي .. ليس في الناس من لايملك ان يفرح . ولكن يجب ان نعرف فقط كيف نفرح ؟ كيف نواجه الألم، أي ألم ، بالابتسام الباني وبالثقة من الجولة المقبلة .. ان روح النضال انما تكمن في ابتسامة .

والفرح الى هذا معد . اما جربت عدواه ؟ حول وجوه القديسين كانوا يرسمون في العادة طوقاً من النور . هالة . وانت وأنا نرى مثل هذه الهالة في كل عين تبتسم .. فنبتسم .. وهذه الابتسامة وحدها طريق العطف البشري والتسامح .

على منضدتي اناء صيني عليه رسم شعبي لثلاثة من العجائز يضحكون الصينيون خلدوا في هذا الرسم ثلاثة من الحكماء كانوا يمثلون فلسفات الصين واديانها الثلاثة البوذية والكونفوشية والطاوية. لقد اتفق ان اجتمع الحكماء الثلاثة ذات يوم فتناقشوا واحتدم بينهم الجدل واحتدم حتى تنبهوا الى ان كلا منهم قد خرق

حرمة دينه في بعض الامر فنظر بعضهم الى بعض ثم انفجروا في ضحكة واحدة . . خلاها الصينيــون ، رمزاً للشيء الوحيد الذي يؤلف بين البشر !

والفرح اخيراً ينتصر على كل شيء .. أحدثك حديث النصر؟

في القصص الشعبي الاسباني حكايــة ، يقولون ان نبيلا من النبلاء ، التهب قلبه بالحب يوما وفشل حتى فكر بالانتحار. ولكنهم نصحوه ان يترهب وهناك في عزلة الدير عرف العزاء من الحب . اما اليأس فبقي يمزق كبده . وذات مساء رف في محرابه ملك قال : لا تيأس تستطيع ان تجد الفرح على الارض . عندي طلسم له ، عدني فقط ان تتبع تعاليمي ستة اشهر صغيرة .

– اعدك ، اعدك يا ملكي .

واخرج الملك من اجنحته مرآة قال : هذه المرآة السحرية تصب البلاء على من ينظر فيهـــا متجهما .. ولكنها تمنح الفرح للمبتسم . الق عليها ابتسامة فقط كل صباح .

وفي الصباح التالي سمـع الرهبان في محاربهم غناء صاحب المرآة يجرح سكون الدير . ور كض رئيس الدير ينصحه ... على انهم سمعوه يغني ايضا في اليوم الثاني وفي الايام التاليـة . وقلده الآخرون . ولم يمض شهر حتى شع الدير كله من الفرح ، واضطرب الاساقفة الكبار وقرروا ارساله الى دير الظـلام ، الدير الشهير بتجهمه الاسود ، وجاءه الملك وقال :

– لا بأس عليك ولا تحمل المرآة معك فهي ليست اكثر من

مرآة عادية . وانت قد تعلمت سر الفرح .

وتكررت عدوى الفرح في دير الظلام بحيث اعتبر عمل الراهب الضاحك كفراً بالقداسة وحكم عليه بالاحراق حيا .. فذهب الى المحرقة مملوء الصدر بالفرح ايضا مما دفع احد عشر راهبا لمحاولة انقاذه من اللهب ولكنهم هلكوا معه ..

والتقت ارواح الجميع في السماء . وسيقوا بخطاياهم الى الجحيم ولكن غناءهم كان يغطي على صوتها وهي تفور . وطربت كهوفها المدهمة للغناء، هي التي لم تسمع الا الصراخ الممزق وعويل الدموع .. وبالرغم من كل الحقد الذي يصرخ في الجحيم فقد شل حقد الزبانية ايضاً غناء القادمين الجدد وغناء الهالكين القدامى معهم . واضمحلت صيحات العذاب من النار شيئا فشيئا ليحل محلها الغناء .. وتناهى الغناء الى سدرة المنتهى فقال الله : دعوهم .. لا تحطموا لهم المرآة فقد استحقوا السعادة .

وتقول الجدة لأحفادها في اسبانيا بعد ان تروي القصة : اترون ؟ ان الابتسام ينتصر حتى على الجحيم !.

حديث وأسطورة

في احدى الحلقات ، ذات يوم ، لا ادري كيف حال الحديث من هزل الى جد ثم لا ادري كيف غامرنا - على غير العادة - في بحث فني ، لا ظل السياسة الكريه يطل عليه ، ولا نقد الحياة والناس يفسده . لعلنا كنا نتحدث اول الامر عن فلم « الخف الاحمر » اذا اننا تحدثنا عن (اندرسن) صاحب الاقصوصة ثم عطف بنا الكلام الى (وايلد) و (بو) ثم قفزنا فعل العصافير

العجلة على البيادر ، بين اسماء كثيرة ستاندال ، شوبان ، موسه قيس الملوح ، غويا ، جويس ، بيرون، ليوناردو ، هايني ، ابن حزم ... كانت هذه الاسماء تتراكض على الشفاه ثم تغيب بسرعة عنها ولكنها كانت تدفعنا اكثر فاكثر في جوها وتوقظ في انفسنا عشرات الانطباعات الغائمة كما لو جربت ان تعزف مرة بعد مرة مطالع اغنيات عتيقة على البيان !..

ولم تغب « المرأة » عن الحديث . واي حديث لا تكون المرأة عقدته. انها كما رد الخاتم المسحور لا تكاد تلمس حديث الفن والحب حتى تسمع وسوسة خلخالها عند انفك ! زعم احدنا ان المرأة نقطة انطلاق الفنان ولكنها لا ترافقه الى القمم .. انه هناك وحيد !.

وزعم آخر ان كل انتاج فني انما هو تعبير « مصعد » عن الغـــريزة ولا يمكن ان يترك الفنان من قبضتـــه قلب المرأة !

وقال ثالث ان الفن تمرد على « ناعورة » الحياة المكرورة وان المرأة احدى وسائل الفنان في تحقيق قدره وتمرده ، وقال رابع استمعنا له طويلاً طويلاً لانه كان يتكلم وعيناه تطاردان حلما في افق نفسه : المرأة لدى الفنان هي الموقف الذي تقفه هي منه ، هي صورتها عنده لا لحمها ودمها. و كثيراً ما لاحظت ان الحب الذي نعرفه نحن غريب عن حب الفنان . الحب لديك أو لدي برزخ النهاية ولكنه عند الفنان نقطة البدء .. ورعشة الحب

التي تلامس قلبي أو قلبك وتملؤه انطلاقا وسعادة هي نفسها التي تقيد قلب المبدع وتدمي تعاسته وجراحه . لحظة الاوج عندنا هي لحظة الحضيض عنده ! وما نخاله حبا لدى المبـدع هو حب كاذب ولك ان تسميه انانية او مقتا او ما شئت من الاسمـاء ايضا ولكنه على كل حال ليس بحب « المرأة » .

لقد يبدأ الفنان بمثل هذا الحب ولكن « المرأة » سرعان ما تذوب منه وينتهي بحب الحب نفسه ، ينتهي بحب ما ابدعه ! ويخيل إلي أن قيس الملوح لو بعث فخير بين شعره وليلاه لاختار مقطوعاته وقصائده على ان ينال ليلى (هذا إذا نسينا ان ليلاه التي غنى هي غير التي احب !) ثم ألستم ترون معي ان ليوناردو كان يفضل لوحته (الجوكوندا) على صاحبتها (موناليزا) نفسها ؟ وموسيه ؟ أتعتقدون أن ألمه لفقد جورج ساند ذلـك الألم الذي خلده في « لياليه » يمكن ان يكون اكثر من ألمـه لو سلبناه تلك « الليالي » ؟

لست هنا في سبيل تكرار كل الذي ألقى في تلك الحلقـة من حديث واستطيع تذكر الجدل الذي ثار والتوى حـول نفسه بعد ذلك فهبط بنا الى فراغ الكلمات .. فآخر ما افكر فيه ان اتي الى قارئي الحلول والاجوبة . لقد أردت ان أثـير في نفسه بعض الأسئلة ، أليس ذلـك حسبي ؟ وإذا شاء بعض الزاد فاني أروي له هذه الاسطورة الهندية التي التقطتهـا من ذلك الحديث :

تبدأ الاسطورة بين اثنين : (هو) ولي العهد و (هي) أميرة البلاط في مملكة بعيدة ...

كان هو اجمل امراء المملكة وكانت هي اجمل اميراتها وكان شعلة ذكاء وكانت كذلك وكان رفيع الثقافة وكانت مثله .

وما كاد كيوبيد يهمس في اذن كل منهما همسة بعد لقائهما الاول حتى اضحيا حبيبين ثم زوجين ثم ملكين للمملكة .

وكانت سعادة العاشقين احدوثة شعبهما ، وكان المحبون يقلدونهما في نزهاتهما الليلية في غابة البلوط والسنديان او على ضفاف النهر بين الدلب او على الرابية مع النجم . وكان الناس يتحدثون جميعا بما أقام الملك لمعبودته ، من حدائق اقتطعها من الفردوس ، ففرش ممراتها بحصباء ، بعضها كفتات المهج وبعضها في بياض الثلوج ، واجرى فيها الينابيع والسواقي ونثر بين أدغالها تماثيل الآلهة وجعل في مكان ما منها معبداً للحب ينتهي مطافه كل مساء اليه فينزع الشوك من طريق المعبد بيديه هنالك لتسير الملكة حافية الاقدام مرسلة الشعر معه في حضن الشجر !

وذات مساء في احدى النزهات بينما كانا عائدين ينظر أحدهما في عيني الآخر إذا بالقمر يغيب فجأة وراء الغيم وإذا بالملكة تصرخ من وخزة اصابت قدمها ، وينظر الملك فيرى أفعى تنسل هاربة في الدغل بينما معبودته تتلوى على التراب من الألم ثم تنتفض كورقة اللبلاب في الريح ثم تهمد همود الموت !

جن جنون الحبيب الشاب . وأتى باطباء المملكة فألقى بين أيديهم كل ما في خزائنه من ثمين ونادر ، اكواما كالحصى ، براقة كجبين الشمس ، ولكنهم وقفوا حيارى عاجزين امام الجسد الهامد . فبكى الملك عند ذلك وبكى . وسقى بالدموع الحمراء قلبه وقرر ان يصرف باقي عمره عند قبر زوجه .

أمر فبني لها حيث سقطت قبر مدهش جلب له المرمر اللامع الملون من البلاد البعيدة ، واستغرق بناؤه سنة كاملة لكن الملك حينما رآه وجده أقل من شوقه وعاطفته الحرى فأمر بان يبنى من حول القبر بناء باعمدة وقباب وجدران مزخرفة وسقوف مزوقة فقضى البناؤون في اقامة ذلك سنوات .. وعاد الملك فزار البناء فوجده ضيقا فأمر بتوسعة ابهائه واضافة بعض الاجنحة اليه وملئه بفاخر السجاد ونادر الرياش والثريات وتوسعة الحدائق من حوله ونثر الشجر والبرك والتماثيل في كل ركن منه « اريد ان أرى الجنة هنا ... أتفهمون ؟ » وصدع البناؤون بالأمر وعملوا على تحقيق رغبة الملك سنوات اخرى . وقد انتظروا حين صعد في النهاية الى سطح الابنية الضخمة ، ورأى المنظر الرائع ، ان يجزل لهم المكافأة ولكنه عبس إذ اعترضت نظرته في الافق البعيد رابية عالية عليها بعض الشجر وإذ شوهت المنظر عليه اكواخ القرية المجاورة وإذ وجد النهر بعيد المجرى متعرج السير فامر بازالة الرابية وهـدم القرية وتعديل مجرى النهر فعاد العمل من جديد ..

وأولع الملك بالمكان فكان يزوره فترة بعد فترة. وكان كلما زاره أمر بتعديل هذا الركن ورفع ذلك البناء وزيادة الزخرف هنا وسكب الذهب والفضة هناك وبعد عشرين سنة أتى الملك ومن ورائه رجال حاشيته وكبار بلاطه ليشهد اخيراً القصور التي تم تشييدها والحدائق التي تم تنسيقها والآفاق التي تم تطهيرها.. لقد استنفد الملك كل نفسه وخياله في التعديل والتجميل فلم يعد احد ينتظر تغييراً في تلك المجموعة الرائعة الكاملة. ولكن الملك حين مر في تجواله امام القبر الصغير المنكمش وسط تلك القصور الشاهقة التفت الى رئيس البنائين وراءه وقال :

ـ ازيلوا هذا القبر !

* * *

أليس هذا مافعله ايضاً كل فنان مع ملهمته ؟

جمجمة وجمجمة

هما جمجمتان جارتان في متحف الانسان بقصر شايو (في باريس) . علبتان فارغتان من العظم الابيض تسكنان هناك، بدل القبر ، في جامين اخوين من البلور ، كتبوا تحت الاولى (جمجمة مجرم : سليمان الحلبي(١)) وتحت الجارة الاخرى

(١) هو ذلك الشاب الجرىء الذي قتل الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية على مصر (بعد هرب نابليون) سنة ١٨٠٠ واعدم على الخازوق .

(جمجمة عبقري : ديكارت) !

مئات من الناس يمرون كل يوم بالجامـــين ، وتستعرض الجمجمتان هذه السلسلة المتصلة من البشر باعين جوفاء مظلمة ! بعضهم لايجود عليها بغير نظرة الفضول البليد . وبعض يتأملها بشغف الفنان الخاشع امام تمثال فينوس ميلو ! وقـــد يحاول باحث احمق ان يلتقط لغز الانسان المتفوق بمقارنة هذا الجوف الحجاجي بذاك وتلك الاستدارة في جدار الصدغ باختها ! ويمر احد تلاميذ (لومبروزو) الاذكياء فيفتش عن غريزة الاجرام في جمجمة المجرم او ينقب بعض اتباع (بينه) عن سر العبقرية في العلبة العظمية الفارغة ! وتنتثر التعليقات ، فيها السخيف وفيها الذكي ، تنتثر بكل لسان ، وبالسنة ما حلم بسماعها سليمان ولا صاحبه .. والجمجمتان جامدتان ، وراء البلور ، كشيطان نيتشه الذي استوت عنده كل الاحوال !

* * *

اقبلت على الجمجمتـــين ، وفي ملامحي دهشة من يلتقي بصديقين عتيقين لم يكن ينتظر لقياهما ولا لقياهما معـاً ، وفي ذلك المكان وفي تلك الساعة . أي صدفة غريبة جمعتهما وجمعتني بهما هناك ؟ وخطرت في بالي النجوى فضحكت لسخافة الفكرة الرومانتيكية ، وضحكت لاستاذنا فيها : جبران !!.. على اني لم استطع منع عيني من التنقل ، كمكوك النول البطيء ، بين الكرتين السمراوين العاريتين . لم اكن اقارن بينهما ولكني

كنت انسج لهما تاريخهما في دماغي . كنت اكسوهمـــا ما احتشد في جمجمتي انا عنهما !

إذن ! فهذا ابن وطني (سليمان) . . لست أدري إذا كان تنسم في (رائحة الأهل) بعد طول اغتراب ، ام وجد بي نصيراً متأخر الزمان ! . . . تذكرت وأنا أمامه لذة التشفي التي غمرتني حين حدثنا معلمنا في الابتدائي حديث قتله للجنرال الفرنسي الغاصب وتذكرت حزني لمصرعه الرهيب بعد ذلك . . وخطرت الجمجمة ، في وهمي ، خطرة خاطفة ، فاذا بها تنتقل ، امامي ، من حلب الى القاهرة ، فتقبع مدة في اروقة الازهر الرطبة ، تعيش على الجرايـة وحلقات الدرس . ثم يلهب جوفها حماس ديني مشبوب ويقنع القلب من ورائها بضرورة الفتك بالكفرة المحتلين فيتحقق الجهاد وتكون الشهـــادة ثم . . . ها هي ذي الجمجمة منذ قرن ونصف القرن في ايدي هؤلاء الكفرة وتحتها دمغة الاجرام !

وذاك ديكارت . . . إنه شيخ ، إذا قيس بجاره سليمان فعمره يزيد عن ثلاثة قرون وليس يزيد عمر صاحبه عن نصف هـذا القدر . ولست ادري ايضاً هل عرف في تلميـذاً عاقاً من تلاميذه أم غمز صاحبه وضحكا جميعاً مني ؟ لشدما سحقتني كلمته « أفكر فانا موجود » حتى استرحت إلى كلمة (جيد) « اشعر فانا موجود » ولشد ما شغلني بادلته العقلية في وجـود الله حتى همس (روسو) في اذني : إذا كان العقل ينفي وجود الله فان

الشمور يثبته » ! وهذه الجمجمة التي تجرها فرنسا اليها ويكسر الناس ادمغتهم لفهم ما جال فيها ذات يوم ، قضت خير أشطر عمرها ، بعيدة عن فرنسا ، عشرين سنة في هولندا . وقضتها بعيدة عن الناس وإذا كان جمال الزهرة يجني عليها فقد جنى على ديكارت فكره : احبت ملكة السويد كريستينا ان تتلمذ عليه في بلادها الباردة ولم يكن يروقها ان تدرس الفلسفة إلا في الساعة الرابعة من الصباح فاخترم البرد صدر ديكارت وذهب به !.. وبقيت الجمجمة .. ها هنا !

* * *

كل من سليمان وديكارت الآن علبتان من العظم الفارغ ! وأقسم - ولو ابى الانثولوجيون - اني ما وجدت بينهما من فارق اذكره ! لقد فرغت جمجمة سليمان من الهوس الديني ومن آيات الجهاد والشهادة كما فرغت الاخرى من « الأنا افكر فانا موجود » ومن الهندسه التحليلية وقوانين الضوء . وحلت العتمة في ذينك الجوفين اللذين رأى بهما سليمان لآخر مرة جلاديه الوحوش ، ورأى بهما ديكارت دموع مودعيه وإجلالهم في اللحظات الاخيرة ! وذهب وراء تلك الملامح التي تقلصت من الألم الشنيع في وجه سليمان وانبسطت المراحة الكبرى في وجه ديكارت .. استوت الجمجمتان الان في كل شيء إلا في شيء واحد : فابن وطني : سليمان هو هناك ، في قصر شايو ، مجرم وهو عندي ، في دروسي ، بطل . وعملاق الفكر الفرنسي : ديكارت جعلوه

هناك نموذج العبقري وليسوا بالقلائل اولئك الذي يجدونه من اكبر الحمقى والمغفلين ! !

وألف عذر بعد من شيخنا ديكارت فاحد المفكرين من ابناء وطنه (باسكال) هو الذى علمني هذه الكلمة : « الحق أمام البيرنة خطأ وراءها » ! ولئن عدوا ديكارت مطلع عصر جديد في الفكر الغربي فسيأتي اليوم الذي يكتب فيه مؤرخ منا تاريخ العصر الحديث ويضع في مطلعه اسم اول متمرد منتقم للعرب من العدوان الغربي : سليمان الحلبي !

* * *

هما جمجمتان جارتان في متحف الانسان . علبتان فارغتان من العظم الابيض ، في جامين اخوين من البلور : جمجمة مجرم وجمجمة عبقري .

والسخرية الكبرى لو اخطأ خادم المتحف ذات يوم فوضع جمجمة مكان جمجمة !

الأمل الخصب

قل لي ، أجربت العيش لحظة دون أمـــل ؟ أعرفت عضة اليأس ؟ أتاتي لـك ان تطفىء النجوم فوقك بيديك فلا نجم ، وان تنسف الجسور حولك فـلا جسر ، وان تتخذ سبيلك في العمر سربا ؟

من لحظات الحياة الكبرى ، هذه اللحظات العمياء السود ، وليس فينا من لم يعرفها. اولسنا جميعاً ابناء تلك الغصة التي سحقت

آدم وهو يصطدم لاول مرة بصخور الارض ؟ هي لحظات من العلقم والجراح تتبدى لك الحياة من خلالها عبثاً ينبع من عدم لينتهي الى عدم، ويخيل اليك معها انك وحيد . وان كل شيء قد هجرك .. حتى الله . او تحسب فيهـــا ان كل الارض ليست اكثر من كرة من الطين تدور بكتل من العبيد كما تدور الدابة بالناعورة الى الابد . قد تكون مرت بك انت هذه اللحظات حين اقعدك المرض ذات يوم. وقد يكون رفيقك في المعمل ، قد ذ قها حين شرده رب العمل ، وقـد يكون فلاحو قريتك تجرعوها حين انقطع الغيث سنوات متوالية .. وقـد يكون هذا المار في الطريق امامك الان قد عرفها يوم فشل في الحب.

ان خاطرة واحدة قد خفقت في نفسك ونفس هؤلاء جميعاً فحالت بينك انت وبين اليأس عند المرض ، ومنعت رفيقك العاطل عن الانتحار ، ولم تحمل فلاحي القرية على هجر الارض ولا ذهبت بهذا الذي يكاد يغيب عنك في المنعطف عـلى آثار المجنون .. مجنون ليلى !.

هذه الخاطرة هي (الأمل) .

ولقد انتصر الانسان على الكثير حـــين رقصت له هذه الخاطرة ورقص لها ، فالانبياء ما مشوا برسالاتهم الا بالامل ، والمكتشفون ما افنوا الجهد والعمر الا على الامل ، والمناضلون ما سالت على حد الظبي اكبادهم الا في الامل .. والمغامرون والمفكرون وملايين المزارعين واصحاب المتاجر .. ترى ماذا

يكون لو استطاع شيطان مريد ان يقطع عن اللحظة العابرة غدها وان يمسح عن عين الزاهد طيف الفردوس ويقنع المحارب بعقم النصر والفقير بخلود الجوع و .. لو استطاع ان يمد يده فيمسح الامل من النفوس كما تمسح الغيوم القمر . ترى ماذا يكون ؟ واي جحيم يلف بذلك الارض ؟

تروي الاساطير الاغريقية ان بندورا كانت تعيش مع زوجها في فردوس من الارض، او ما يشبه الفردوس، فلا هم ولا خوف ولا امل على ان زيوس رب الارباب اراد ان ينتقم منها فبعث اليها بصندوق من الخشب المجزع الثمين هدية منه . على انه اشترط الا تفتحه الا باذنه .

ماذا في الصندوق ؟

سؤال القته بندورا على نفسها اولا .. ولكنه كان يتضخم ويتضخم ويلح يوماً بعد يوم . حتى غدت تحس ان الصندوق مغلق على قلبها ونفسها جميعاً .

وحاولت مرة ان تفتحه فاستعصى وزاد في فضولها اصوات مبحوحة مكاومة كانت تهتف في داخله : انقذينا . فما كان منها ذات لحظة الا ان القت بالصندوق الى الارض فانكسر وانطلقت في جو الغرفة خفافيش سود . اهوت على بندورا بمخالبها الحادة واوسعتها عضا .. يعضها الوحد فيصيح انا المرض .. ويعض الثاني فيصيح انا الفقر والثالث انا الجوع والرابع انا البخل .. انا القحط .. انا النفاق .. انا الذل .. واسرعت بندورا تغلق

الصندوق ولكنها يا الأسف اغلقته على الروح الطيب الوحيد فيه : « الامــــل » وارتمت تتوجع من جرحها بينما انطلقت الخفافيش في الفضاء الاوسع تعض الناس وتوزع الشر بــــين البشر ، وحين عاد الزوج فتح الصندوق فانطلقت منه فراشة بيضاء رفت على جراح بندورا فشفتها وانطلقت تأسو جراح البشر .. انها فراشة الامل .

وهي مازالت تأسو كلوم الناس الناس إلى اليوم !

والآمال بعد تختلف عرضا وتختلف زخرفاً وتختلف تعلقاً بالنجم . وكأني بمواكب الآملين العظام تمر الآن امام عيني فأرى في من ارى مثلاً عرض الامل الذي أطاف ببوذا فاذا له اليوم ٧٠٠ مليون من الاتباع وزينة الامل الذي داعب كريستوف كولومب فجعله يرفع الشراع في المحيط المجهول، وقوة الامل في طارق بن زياد حــين احرق السفن وراءه .. واتعرف حولي، كما تتعرف انت حولك ايضا، الى الوان الامال من أمل كسيح الى امل وقاح الى امل يتحدى الكبر أولا يستطيع مواجهة النور .

ودعني بهذه المناسبة اقل لك ، ان الامــــل يختلف عن الحلم الذي يؤرجحه الجفن ، وعن الوهم المجنح بالف جناح ، وعن الخيال الصوفي الكسول ، وبين الامال ماهو نبيل وبينها ماهو من الطين الحقير . والامل الذي يمنحنا قيمتنا الكبرى هو فقط الامل الذي يدفعنا للنضال ولأن نختصر الحياة جميعاً في لحظة

بطولة ، او قبلة عرمة .

هذا النوع من الامل الايجابي الخصب هو الذي يستحق

ان اذبح له قلبي شريانا شريانا ..

الست تذبح له مثلي قلبك ؟

لا أومن بالعبقرية

أتؤمن بالعبقرية ؟ انا ، لا أومن بها . وكل هـــذا النبع المسحور الذي يعزون اليـــه الألق والتفوق وشياطين الفكر ، محوتـه من خاطري ، ببدي . اصبحت أخشى كسله الحرام وخدر الراحة اليه ، انه هيكل اجوف والهياكل الجوفاء هي ، في العادة اكثر الهياكل اغراء واكثرها عباداً ايضاً .

ولست أخشى ان تنفتح لي الكوى الآن فتطل منها زمر

العباقرة عاتبة او غاضبة أني اسلبها اطارات النور التي تطيف برؤوسها ، أني اجر بأرجلها الى الوحل ، فالذين ابتلوا بالعبقرية هم اول من يعـــلم ان لاصدفة عمياء توزع نصيب الناس من الابداع والبله ، ولا رعونة حظ ترقص عند عتبة جارك وتأبى ان ترقص عند عتبتك ..

والعبقرية قبل ان تكون هبة وموهبة كانت عملا ، عملا دائباً . كانت غزل دماء ومزق شرايين وذبحة جهد .

وتستطيع ان تسأل العباقرة واحداً واحداً لتسمع حديث العبقرية الدامي ، الحديث الذي يعاش عادة ولكنه لا يكتب ! لا يغرنك المسرح المتألق الذي ينتثرون فيه ، ولكن انظر الى الى عظام المسرح وراء الستار والاصبغة والكواليس .. قالوا ان (نيوتن) اكتشف قانون الجاذبية العامـة في الكون فجأة وهو ينظر الى تفاحة تسقط ، فهل قالوا انـــه ظل يفكر في الامر قبل ذلك سبع عشرة سنة ؟ وقد وضع (داروين) اسس الفكر الحديث في نظرية (التطور) فهل اتاك انـه عمل عليها اثنين وعشرين عاماً ؟ وقد توج الناس بالغار (مدام كوري) على اكتشاف الراديوم فهل مد احـد منهم يده ليحمل معها اطنان الحجارة وهي تقذفها في المصهر ؟ ومن ذا يرى من خلال قصائد جرير او بودلير لهاث القلق وغزل الدمع ؟ او يقرأ في انتاج دوستويفسكي مأساة دوستويفسكي ؟.

بلى ، قد تكثر كبواتنا نحن بني الطين وبعضنا يعتقد ان له من القدر ما لبنات دانائيد ؟ اتعرفهن هاته البنات ؟

في الاساطير ان دانائيد رزق خمسين بنتا زوجهن كلهن في يوم واحد ولكنهن قتلن ازواجهن ليلة العرس فعاقبهن الله ان يبقين في الجحيم حتى يملأن بالماء برميلا ضخماً كالهوة ولكن .. لاقعر له ..

لا اعتقد ان العمل مهما ضئول يضيع ، وليس من الضروري ان ينقلب كل منا عبقرية ضخمة ليرضى عن نفسه ، فتراث الانسانية لم يصنعه العباقرة الكبار وحدهم ولكن صنعه اكثر منهم ، عشرات الملايين من الصناع والمفكرين والمعلمين والفلاحين . صنعه كل صاحب جهد .

الاهرامات خلدت لنا جهد عشرات الالوف من العمال . ومعبد بعلبك حفظ عبقرية الف نحات وبناء . وهؤلاء الذين ابتكروا النسيج والنار والورق وصحن الطعام وسكة المحراث ووصفة الميجانا والوتر المرن هؤلاء شيء كثير كثير في تاريخ الانسان .. انهم هم كل انسانيته .

وبعد فانا أومن قبل العبقرية بالعمل . أومن بتجمع الجهد الصغير الى جهد صغير آخر . أومن بالقطرة تسيل مع اختها القطرة لتكون نهراً ، وبالجذاف يظل يصارع رجراج الماء حتى يبلغ الشاطىء البعيد وبالصبر ينضج قلقاً ، وبالدمعة تتفجر

توقا ، أومن ان بالامكان دوما عمل شيء .

انك تستطيع اذ ذاك دوما ان تجرب ساعدك وجبينك . تستطيع ان تشق دربا صغيراً وان تسير . اليست سفرة الف ميل تبدأ بخطوة ؟.

الله أعلم

كنت، ولعلي لا أزال، من المولعين بالكتب الصفراء. رائحة القدم فيها تبعث في" نوعاً من النشوة ، المدمنون وحدهم يعرفونها . هل قرأت أو تقرأ شيئاً من هذه الكتب ؟ إذن فهل وقفت مرة عند تلك الكلمة التي تقفل كل بحث فيها : « الله أعلم » اني ما وصلتها مرة وحسبت انها خاتمة البحث ولكن بدءه، كالقصة التي تقف دون النهاية لتقول لك : أكمل من عندك !..

إن العالم يشد في تلك الكلمة كل غروره ويقول بعد كل الذي قال : لا يزل هنالك افق آخر ما عرفته ، درب ما زرعته عيناي ، نجم ما قطفته ولعله ...

وأنا ، بيني وبينك ، أؤمن بهذا النوع من الكمال الحي أؤمن دوماً ان وراء الدرب الذي يتلوى أمامي درباً آخر اروع منه ، وفوق ما اعرف معرفة ارقى واشمل ، وبعد القمة التي تداعب قدمي قمما وقمما . أؤمن اني انتهي من ان اكون شيئاً حين اشعر باني كل شيء .. همسة الكمال التي توسوس في صدري اعرف انها هي لحظة النقص والعقم ، ويداي تتصلبان ، تكفان عن الابداع حين يكف فكري عن ان يتوق لشيء .

يروون عن الفنان الشهير ميكل انجـلو انه حين نفض الازميل من تمثاله الرائع (موسى) وقف ساعة يسرح النظر فيه حتى صاح به في نوع من الجنون :

— تكلم ! ..

أدرك الفنان انه بلغ الكمال الفني الاعلى ولكنه في تلك اللحظة بالذات قذف التمثال بالمطرقة فهشم انفه .. هشمه ليؤمن ان باستطاعته ان يبدع خيراً منه ، جرح كماله لئلا يواجه بعـد ذلك العقم الرهيب ..

وانت يبدأ انتهاؤك حين تعتقد انك صنعت الحذاء الذي لن تصنع مثله بعد ، ووصلت المقام الذي لا يدانيك فيه مدان ، وابدعت القصيدة التي ما انشدتها بعد لهاة ، وعلمت العـلم الذي

ليس بعده من مزيد .. تبدأ الطريق النازلة تماماً حيث تنتهي الطريق الصاعدة ،وتنتهي انت حين تحسب انك بلغت القمة .

التقى برنارد شو في إحدى الحفـــلات ،لورد من الاسر العريقة ، فاقتحمه اللورد من وراء (المونوكل) بنظرة عابرة وسأل : من أي الأسر هو ، فقال : لست من أسرة نبيلة يا سيدي اللورد مثلك ولكن مجد اهلك يا سيدي اللورد ينتهي بك اما مجد أهلي فيبدأ بي .

وبعد فأنت مهما تطاولت فلن تزيد عن مائة وسبعـــين سنتمتراً او ثمانين ومع هذا فانت تتوق لاقتطاف القمر ،وانت مهما ضخمت فلن تزيد عن تسعين او مائة كيلو غرام ، ومع هذا فانت تسير آلاف الاطنان من الحديد في الماء والسماء ، ولو اعتقد البشر لحظة انه بلغ الامر الذي كاد وانه كمل، لغدا الكوكب الارضي جنازة راكضة ، ولعقمت الايدي وجفت اللهوات وجمدت الفكرة الملهمة .. ان الشعور بالكمال يعدل الشعور بالموت ، انه العقم .. أشعرت يوماً بقسوة العقم ؟

أما طريق الحياة فسعي الى الكمال،توق ، كتوق الفراش لشرب النور فيه كل القلق المبدع ، أليست لذة الحياة كلها في انها توق دائم الى الخلق .. الى المعرفة .. الى الجـــديد ؟ الله اعلم .

المجد الحقيقي

أما هفا قلبك يوماً لمجد ؟ أما اشتهيت مرة وفي يقظة كالحلم ان تكون « شيئاً » مذكوراً ؟ أما رقصت لك أماني الشهرة فجرتك في اودية كالغيوم تطوي وتنشر ؟

أنت تعرف - كما أعرف - وليس الأمر بسر بيني وبينك، انك تشتهي الوثبة ،تذوب ظمأ لأن لا يبقى في افقك ذروة شاردة ، يشوقك ان تمشي بين صفين من اصابع تشير اليك ،

ما من إنسان لم يداعب جفنيه حلم المجد . كانا نمشي باقدامنا على الارض وكلنا لاصقون على الرغم منا بترابها ، لكن اعيننا دوماً معلقة فوقها ، باشبار ومعلقة احياناً بالنجم وما وراء النجم ! ان اعمق دافع فينا الى العمل هو الرغبه في ان نكون شيئاً، أي شيء . ونحن نملأ الدنيا معارك في هذا السبيل ونفعم الدروب جهداً وجهداً يستوي في ذلك خصومتك انت مع صاحبك على رئاسة الجمعية او مختارية القرية ، أو محاولتك قطف القمر ؟ وإلا فلم تبني انت اجمل من بيت جارك ولم يتحدث صديقك عن ذكاء ابنته ، وفيم يحبس العالم نفسه في عتمة المخبر ؟ ويشتهي فيكتور هوجو ان يطلق اسمه على باريس ؟ ويرمي كولومبوس الشراع في المحيط المجهول ؟

ونحن بعد نختلف في الطريق الى الرفعة ونختلف في مدى الوثبة .. ومواكب الخالدين شيء كعصائب الطير كل افق امامها سبيل ومنطلق .. على ان الناس الفوا ان يفتنهم صراخ باعة الصحف ، اعتادوا ان يأخذهم ضجيج القادة وابواق المواكب الملكية وبريق اللحظة ، ذكروا ان ما يزيد عن مليون كتاب صدرت عن نابليون ، وجدران الآثار الملكية المصرية لا تتحدث عن غير الملوك . وأنت وأنا ، لا نعرف من شخصيات العالم الكبرى إلا هذه الاسماء التي تصنع المؤتمرات ويكذب بعضها على بعض كل يوم .. نحن جميعاً يفتننا ما على سطح الماء من توافه لا دفقة التيار العميق .

إن نسيج الحياة الحقيقي يمتد وراء هؤلاء جميعا . فنابليون عند كشف الستارليس اكثر من جزار كبير مرعب . والفاتحون الذين تخطوا الارض ماذا فتحوا ؟ اشباراً من التراب - اخذها من بعدهم آخرون . وآخرون وهؤلاء الذين يقفزون في عناوين الصحف سينطفئون غدا مع الفجر .. اما الحياة ، حياة الناس ، فعلى غير هذه الرمال تبنى .. والمجد الحقيقي يكون حين تستطيع ان تمنح تلك الحياة شيئاً . هل فكرت يوماً بذلك المجهول الذي اكتشف النار فانت الى اليوم عالة على عبقريته ؟ وفي ذلك الذي حبك اول خيط نسيج ؟ وابتكر اول عجلة ؟ وبنى أول حائط ؟ هؤلاء هم وحدهم ذوو المجد الحقيقي لانهم وحدهم البناة . بناة الانسانية ، إن من يستطيع ان يمنح هو وحده الغني .

لا ضرورة بعد الآن لأن تثب الى النجم أو لان تلبس قبعة نابليون ، او يتوفر لك مخبر باستور كي تمنح ، وتساهم في المجد الانساني ، انت حين يشق محراثك الارض تمنح . وهذا البناء وهو يبني يمنح ، والمعلم في مدرسته ، والشاعر وهو يغني ، والعامل وهو يتصبب عرقاً أمام الآلة ، كلهم ، مجد الارض لان اعمالهم وحدهم هي التي تبقى اضف . ولو قطرة الى التيار فما هو الا جمع قطرات والانسانية بحاجة لأتفه جهد حاجتها لأعظم جهد .. ولكن المهم ان تعطي بكل قلبك .

أتراني ادعو الى شيء قليل ؟

لطاغور الشاعر الهندي قصيدة ، يأتي فيهـــا الحبيب الى

حبيبته فيقول :

ـ أنا أكتفي يا حبيبة بهذه الزهرة التي سقطت عفواً من شعرك .

وتجيب هي :

ـ أنا أعلم أيها السائل المتواضع انك تطلب كل ماعندي .

ـ أنا أكتفي بذلك المنديل الذي كان يجاور قلبك !.

ـ أنا اعلم ايها السائل المتواضع انك تطلب كل ماعندي .

وأنا بدوري اعلم ، بيني وبينك ، ان المجـــد الحقيقي كالحب الحقيقي يرضى بالقليل ولكن شريطة ان تمنحـــه كل ما عندك .

المرأة

لست اذكر من ذا الذي قال : اذا شئت ان تكتب عن المرأة فاغمس ريشتك بالنور ، واون بأجنحة الفراش ولملم كل لحن مسكر . ولكني اعتقد ، بيني وبينك ان صاحب هذا القول الشعري سيغير رأيه اليوم ، او في يوم قريب آت ان لم يكن بعد قد غيره ..

فهالة الشعر التي تطيف بالمرأة منذ القديم قد بدأت تتمزق.

فلا اجنحة ملك هنالك ولا قرون شيطان ولكن انسان وانسان عميق الانسانية يريد ان يأخذ مكانه على ارض الناس .

قفزت هذه الخاطرة الى رأسي وأنا اتذكر منذ ايام صيام المرأة في مصر من اجل حقوقها السياسية ومؤتمر المرأة العربية في بيروت في الاسبوع الماضــي ومقرراته، بينما كان موكب النساء امامي في الندوة النيابية بدمشق يطالب بالحقوق الكاملة للمرأة ولقد بدا لي في لحظة كالحلم ، كأنما الموكب قادم من اعماق الماضي ، منطلق حتى آخر الآخر ..

لقد روت لي جموع المطالبات بالحقوق قصة المرأة كلها منذ حواء الاولى حتى حواء الاخيرة: في هتاف واحد :نريد حقوقنا .

وآمنت كما لاأزال أومن بانه اذا لم يكن اليوم للمرأة فان الغد لها او الغد الذي يليه . انها تريد حقها كانسان .

انتهى عهد المرأة الجارية ـ المرأة التي تسام السوط، فتقبل اطراف السوط وتصوب اليها نظرات الاحتقار فتتلعثم انفاسها في الصدر من الخوف والبهر ويئن الذل في جفنها فينكسر الجفن... ذلك من بقايا الماضي يوم كانت المعضلة المقتولة . آيين هذا الكون .

وانتهى عهد المرأة ـ الدمية، المرأة التي لارأي لها تراه، والتي تلهم ولا تبدع ويؤخذ منهـــا ولكنها لاتستطيع ان تمنح . وتنتظر وراء الباب حتى يفتح الباب !.

ذلك الكائن السابي كان يـــوم كان المجتمع يكفيه جهد بعض اعضائه .

وانتهى عهد المرأة ـ الشيطان، المرأة التي شاركت الافعى في اغواء آدم، فما يزل آدم يحقد عليها الى اليوم. وأورثتها دليلة المحتالة فنها والاعيبها السوداء فهي المكر كله او بعضه، والقى بين يديها هاروت بكل سحره فالناس من غوايتها واهوائها في الجحيم اللذيذ .

كان ما كان من ذلك يوم كان المجتمع كله فاسداً ويأبى الا ان يتهم جزءاً منه بالفساد .

ولقد طوى الماضي او يـــكاد، او سيطوى في الغـــد القريب او البعيد، ولكنه سيطوى على كل حال ليحل محله عهد المرأة ـ الانسان ذات الحقوق الانسانية. ان نصف أمم الارض قد اعترفت بذلك . والبقية تأتي لأن المرأة تناضل لتأتي . ومن ذا الذي يأبى ان يكون لهن مثل الذي عليهن بالمعروف؟ اليس الناس « ذكراً وانثى خلقهم » ؟

انا ما اردت ولست ارغب في ثوب المحامي الاسود .. وفي حشد حجج الحقوق. ولكنها خاطرة عابرة اردت بها ان اقول ان العصر الحديث لم يعد ينظر المرأة على انها نوع خاص من الكائنات الحية ، مخلوق مريب محير فيه رقة الملك وغمزة الشيطان وان كان له شكل الانسان . انه ينظر اليها على انها احد نصفي المجتمع ، أحد جناحيه . ينظر اليها دوماً « كأم » ويعطيها

بهذه الكلمة كل وظيفتها الانسانية .. ان المرأة الام هي المرأة الكاملة . انها الحنان العميق الذي لا يرجو جزاء ، والبذل الذي يتبعه البذل والقدر الذي يخلق القدر !.

واني لأتساءل احياناً اي جحيم يكونه العالم لو فقـــد في لحظة قدر مجنون حنان الأم ؟ ان نصف الحب البشري الذي سال دروب الناس ، منذ كان الناس ، فانما من قلب الام ينبع .

يروون ان قصـــة غرام نشبت مرة . وان فتى اغرم بفتاة كالزهرة المولعة ، ولقد لعبت الفتاة بالفتى وبقلبه فلم يكن يطيق ان يقول لا إذا قالت له عينها : نعم . لم يكن يطيق .. كان الجليد يسيل في عروقه إذا ازورت عنـــه .. وما اكثر ما كانت تزور ، وتسوق الدلال . وكان يأتيها بالهدايا والهدايا فترفضها على الكبر ، وحمل اليها ذات يوم لآلىء امه فمرغت بها الارض وقالت :

ـ ماذا افعل بها ؟ إن كنت صادقاً حقاً في حبك فأتني بقلب أمك ، أجل بقلبها !

وبهت الفتى لحظة ، إنه يحب أمه . ولكنه بعد فترة قصيرة كان في البيت يشق الصدر الذي طالما ضمه وارضعه ، وينتزع من وراء الضلوع ، القلب الذي طالما احبه ، ويركض وهديته الفاجعة تضطرب في يديه . وعثر الفتى لسرعته في بعض الطريق فوقع وارتمى القلب الدامي بعيداً عنه ، ولكنه سمـــع وهو يحاول النهوض ذلك القلب نفسه يهتف به :

ـ ياولدي ! يا حبيبي ! هل أصابك مكروه ؟

وبعد ، أتريد همسة بيني وبينك ؟ انا لن نستطيع بعد اليوم ان نسيء استغلال هذا النبع الفردوسي من الحنـــان . وسوف نراها ، هذه المرأة ، ذات يوم مواطنة كاملة. سوف نراها تأخذ كل حقوقها هذه التي لو ذبحنا قلبها لسمعناه يهتف بنا :

ـ يا ولدي! يا أخي !، يا حبيبي! هل أصابك مكروه ؟

الكلمة الطيبة

في قصص (الف ليلة وليلة) قصة تقول : ان (علي بابا) وصل الى كنز الجبل حين استطاع ان يعرف الكلمة التي تفتح مغاليق الكهف . . . كان يكفيه ان يقف عند الصخرة الضخمة ويردد كلمة السر فاذا بالصخرة المرصودة تنفتح عن الباب الخفي ثم اذا بجوفها العتم يشرق بالوهج ثم اذا بهـــا دفق من الجوهر ومن كل حجر كريم .

انا . اومن بها هذه الكلمة التي تغازل قلب الصخر فيتحرك ويتحرك ليعطي اروع ماعنده وخير مافي ضلوعه الحجربة ، ومن اكثر من هذا اني اعرف كلمة الرصد ، وانك انت ايضا تعرفها مثلي ولا تدري . وليس من الضروري ان يتوسط بينك وبينها لاسحر ولا ساحر .

اتود ان تعرفها ؟ انها الكلمة الطيبة ! في كل قلب مهما قسا القلب جانب للحب والعطف ، ركن صغير ترقرق فيه بعض العواطف الحلوة . حتى من عين السفاح لابد ان تركض يوما ما دمعة وقد تكون بعض القلوب من الحقد والغل ، كعقدة الأفاعي .. اتعرفها تلك الافاعي التي تقتتل وتقتتل فيلتف بعضها في بعض عقدة من الغضب الراعف لا يحلها إلا دبيب الموت فيها شيئاً فشيئا ، انك حتى في هذه القلوب تستطيع إذا تمتمت بكلمة الرصد أن تجد طريق الكنز ، وليس في النفوس ابداً نفس تتأبى على الكلمة الطيبة .

ولقد اعتدنا أنت وأنا ، وهذا الذي ساهرك أمس في المقهى وذاك الذي يواجهك في مكتبك ، أو يجاورك في الدكان ، اعتدنا كلنا ان نترك ألسنتنا تسيل في نقد الناس مسيل السياط بالجراح والأنين ، في ظهور العبيد . نحن نمزق غيابهم ، نملأ المقهى وردهة الاستقبال ورصيف الشارع ثرثرة وضحكا مراً ، وحسداً كالسم ، لهذا ولذاك . الثمرة الحرام نهتصرها حتى الأمشاج ، يلذ لنا طعمها الوحشي . ونكتوي بعد ذلك بالعداوة ونلتقي بالجبين المقطب مع الآخرين .

أنا لا أقول ، نبأ للنقد وبعداً له ، فلقد يكون في الناس الكثير من العوج ، ولكن هل جربت مرة ان تقول الكلمة الطيبة بدل السيئة ؟ ان تبني ليظهر تهافت البناء الذي بناه غيرك ؟ ان تطول انت ليخجل الاقزام من حولك ؟ ان تشعل الشمعة دون أن تلعن الظلام ؟ ولو فعلت إذن لرأيت الى الأحقاد كيف تذوب ، والى الجبين المقطب كيف يضحك لك ؟ إذن لعرفت ان في يدك سحراً ولكنك لا تستخدمه ، وعرفت نشوة الله حين اخرج الوجود الاول من عتمة العدم !.

فقراء الهنود يغنون بالمزمار للأفعى فترقص . والحصان الجموح تدغدغ عرفه فيطامن من عنفوانه . وقلبك انت وقلبي يعطي كل حبه لهمسة حلوة ، يعطي كنوزاً دونها كنوز الف ليلة . حتى الحـــق نفسه ، نحن نكرهه إذ لم يلبس الكلمة الطيبة .

يروون ان ملكا جمع المنجمين والمفسرين يوماً والقي اليهم بحلم مفزع رآه وطلب تفسيره فقال كبيرهم :

ـ يا سيدي ، انك ستموت بعد ان يموت جميع احبابك قبلك !

فامر الملك بالمنجم فاعطي للجلاد . وقام آخر فقال :

ـ لا سيدي ، انك ستكون اطول عمراً من جميع احبابك .

فامر الملك فملىء فمه جوهراً .

صدقني ؛ انك تستطيع دوماً ان تختار الكلمة الثانية لتقول

ما تريد . وتستطيع بالبناء ان تهدم ، وبالنقدنفسه انتكسب الحب شريطة ان تؤمن معي بالكلمة الطيبة .

ان الله نفسه حين شاء ان يرد البشر الى سبيله بعث اليهم بكلمة طيبة من عنده .

العيد

مضى العيد أمس ، مضى .. كذلك قالوا ، ولكن هل جاء العيد حقاً ؟ هل رقص في مخدعك ، في قلبك ؟ هل ساهم في برء مريضك أم زاد في سنابل البيدر ؟ هل ترك فرحة عند بابك ؟ هل زرع ابتسامة على مقلة محروقة ؟ وهل مر ، كالملاك طوبيا بكوخ الجيران واذا بكل شيء في الكوخ قد تلون بقوس قزح ؟ حتى الكوب الفخاري ؟ أنا ، بيني وبينك ، حركت لساني

كغيري بمبذول التهنئـــة مئات المرات ، أتعرف الببغاء ؟ وهززت كذلك الايدي الممدودة وجزيت على ابتسام بابتسام .. عانيت في أيام العيد قدر الدمية الآلية : وبطش شفتها ويدها وعيناها الى حركة مقدورة فهي في قيد هذه الحركة حتى الحطام الاخير .. لكني اعترف (ولعلك انت ايضاً تعترف معي) ان العيد ما مر بي ولا بك ، ولا طرق بابي ولا بابك .

نحن في الواقع نجتر العمر ، كغزل الليل والنهار دون عيد (وما اقسى الحياة دون عيد) دون ظمأ الى متعة عرمة أو فرحة تمزق الشرايين . نحن لا نعرف كيف نفرح ، ولهذا لا نعرف كيف نحزن .. وهذه الاعياد التي تمر بنا جفت وجفت حتى غدت كالشجرة الجوفاء ، كل قوامها قشور . لا أريد أن اقول انا نملأ الاعياد طعاماً وحلوى حتى التخمة وانا ننهـــك الأرجل زيارات لرفع العتب ، وان نتبادل الابتسام دون طائل وادعو بالتالي الى المعنى دون المادة ، والى السمو نحو عيـــد الروح والنفس ، وترك الجسد .. لا ! فاني ممن يعتقدون ان السعادة أمر حسي مادي بقدر ما هو روحي ايضاً . ثم اني ممن يعتقدون انه لا مبرر للسمو بالمتع النفسية ـ كالفنون ـ والهبوط بالمتع المادية ، كالطعام ، وكلاهما من قوام الحياة ، من صميم هذا الكيان الانساني .

على ان الذي اريد قوله هو انا نتحرف بمتع الحياة ـ في

العادة – عن سننها نعتدي عليها ، ونشوه وجهها بالاصبغة والمساحيق ..

وما العيد مثلا ؟ انه وقفة يقطع بها المجتمع مجرى حياته اليومي ليعاودها اكثر ظمأ الى تذوقها واكثر لذة بها ، يثور بها على السير الرتيب فيرقص بدل ان يمشي ، ويغني بدل ان يتكلم ويلعن العمل بدل ان يعمل .. اما نحن فننحر العيد ، نقتله ، نقضي أيامه في آلية المراسيم بدل ان نجعلها فترة انطلاق ومتعة، نتمطى، ونتخم بدل ان نطلق في الفرح ، اغنية لا يلم بها المدى.

انا كذلك ننحرف بمتعة اللحن . فنظل نصيح مع الوتر حتى يبح الوتر ويموت ، فإذا موسيقانا كلها صوت مطرب !. وننحرف بمتعة الطعام فإذا هو متخم ثقيل ، وبمتعة المعرفة فإذا هي قيود وعبودية للكتاب ، وبمتعة التأمل للطبيعة فإذا نحن امامها نوع من اللصوص !.

كتب إلي الصديق الاستاذ نزار القباني يقول :

« الآن أعود من مقاطعة « كنت » في الجنوب الشرقي من لندن . في قميصي لا يزال شيء من عبق الأرض . وفي عيوني بقايا من بقايا النهار . لم تشاهد عيناي على طول البساط الاخضر الذي تقلبت عليه ، زهرة في غير موضعها ، زنبقة اطول من اختها ، فراشة تشيل الى ابعد من مداها ،عصفوراً يحتكر اكثر من اغنية .. والناس ، الناس هنا يتحركون في في ذلك البهو الأخضر ، كانهم في معبد .. لا يد تمتد الى زهرة

ولا « بارودة نمرة ٩ » تهدد رقبة العصفور بالقلع .

« سلام سلام ، اما عندنا فياويل الربيع من اصابعنا ومن شرهنا ، تتزين الغوطة لنا في كل عام .. فنذهب اليها في ثياب الجزارين بالمعاول والسكاكين ونعود ويعود اطفالنا في المساء حاملين على اكتافهم جثث الاغصان الصبية ، اغصان المشمش والدراق والتفاح وهي لم تفرح بزهراتها الاولى بعد .

مضى العيد ؟.. كذلك قالوا ولكن : هل جاء حقا ؟

أكره التشاؤم

أنا أكره التشاؤم ، أكره السواد ، وقد أضع النظارة السوداء ، ولكن على انفي لا امام قلبي ، وأعقد ألف مرة ما بين حاجبي ولكني احتفظ دوما بابتسامة الربيع في اعماقي !
هل اريد من هذا اني انكر الشوك . اني احسب البؤس خرافة ، اني لا اعترف بالألم ؟ لا فهذا الذي احترق امس ببيدره الوحيد بغلطة لهب ، وذلك اللاجيء الذي يستفيق معه كل

صباح مواء اطفاله من البرد والجوع ، وجارك الذي يذبل كل يوم :

ويمج احياناً دماً فعلى منديله قطع من الكبد

وتلك الأم التي ابتلع القبر اولادها الثلاثة في ايام ، وانت وانا وما نجرره – او يجررنا – من هموم يومية متجددة ، نحن كلنا نرى ألف سبب يدعو الى التجهم ، وألف اصبع تدل على اليأس . فشبح الشقاء ، كالجزار العتيق ، ما رأى انساناً الا وتلمظت السكين في يده .

على اني من أولئك الذين يقولون ان الكأس ملأى الى نصفها بدل ان يقولوا انها فارغة الى النصف . ومن اولئك الذين يرون ان نصف العمر نهار لا ان نصفه ليل . وان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا . فحقيقة الابتسام واليسر والتفاؤل ليست اقل قوة في قلبي من البكاء والعسر والتشاؤم .

ولمَ لا تكون ؟ ألست انت معي في ان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يعرف الضحك والبكاء سبيل شفتيه ؟ أنا اعرف ان الانسان منذ كان يتلذذ بالشكوى ، لا يكف عنها ، ويجد لطعمها العلقمي نشوة مرة في عروقه ، جدنا النبيل آدم علمنا ذلك وهو في الجنة ، وما كان قد نهشته بعد صخور الارض ، ولا كان ذاق عاصف البحر او ذبحة الجوع . ولعله لهذا كان تراث الانسانية من البث والشكوى يفترس شعر الناس وفكر الناس ، وكل فن في الناس . ولهذا كان

التشاؤم في اغلب الاحيان اقرب الطرق الى الحكمة .

ويقولون في الحكايا ان الله ضاق ذات يوم ذرعاً بشكاة الناس فاحب ان يستجيب لكل ما يشتهون ، وتجلى عليهم حيث اجتمعوا ، فشكت الحسناء ما تلقاه من حسنها ، وشكت الدميمة ، والقى الشاب امامه بشبابه الطائش يريد حكمة الشيوخ ، واشتهى الشيخ لحظة من شباب ، وجاء العالم يرجو النجاة من دوى رأسه ، وجاء الجاهل . أتى العالم كله يشكو . وقال الله : كونوا كما تشتهون ، فكانوا !

ولم تمض لحظات حتى بدأت الشكوى تتصاعد من جديد الى السماء ، انهم لم يجدوا في عالمهم الجديد غير الذي كان !..

وهكذا فما مر عصر في التاريخ خلا من نقمة . وما جاء جيل الا وحسب انه اسوأ الاجيال حظاً , منقلباً ، ولا فرطت أمة الا وحسبت ان يوم القيامة هو غدها أو الغد الذي يليه ، وكم مرة انتظر الناس معجزة تنقذهم . انتظروا المسيح أو المهدي مثلاً ، أو رفعوا الاعين في ضراعة الى قبة الفلك يرجون تدخل السماء . اللحظة الحاضرة أف لها ابداً ، ويتعلق الانسان الانسان بلحظة فرطت أو بلحظة بما هو آت .

ومع هذا فقد عودت نفسي ان انظر الى النصف المملوء من الكأس لا النصف الفارغ وارى ، برغم زحف الاسنة وحمحمة الحرب ، برغم العصبات والمكورات والمنقدات وما لست ادري من اصناف الجرثوم والمكروب ، برغم الوان

المصائب من أم من ثكلى ، إلى جوع يمزق الحشا ، إلى طعنة ذل ، إلى حب لا رجاء فيه ، برغم الموت ومنجله الحاصد الحديد ، أرى واظل أرى من وراء ذلك كله : ان الشمس تشرق كل صباح بعد ان تمحوها العتمة ، وان الربيع يعاود الرابية بعد ان يعصف به لهب الصيف وصقيع الشتاء ، اظل ارى بعد الدمار عودة البناء الى بناء بيوت اكثر ، وبعد الحصاد رجوع المحراث إلى الارض ، وبعد الغاز السام والقنبلة خروج الدواء والسيارة من المصنع نفسه ، اظل أرى الزهرة تنمو والطفل يولد ، والفكر يبدع ، والقلب يهفو للقلب . أظل أرى الحياة تستمر وتنتصر .

أنا أكره التشاؤم ، ولكن التشاؤم سيظل برغمي وبرغمك ، لوناً من امتع الوان الحياة ، ومن اعمق الحكمة ايضاً .

ألست ترى معي ذلك ؟

يا بلادي

هل لمست يوما هذا التراب الذي تمشي فوقه ؟ هل شعرت مرة برغبة في تمريغ شفتيك عليه ؟ أغلب الظن انك ما فعلت، ما فعلت حتى ولو كنت في بعد نظر ضرير المعرة القائل :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الاجساد

ومع هذا فان هذه الرغبة ستخفق لك، خفقة السنونو للربيع، متى بعد بك الشراع ونادتك ارضك النداء الساحر الذي لا يرد : تعال !..

فظل التينة الضخمة عند مزارب العين تدعوك ، ويظل في بيتك القديم سر حلو خبيء ينتظرك ، ويبقى ماء بلدك احلى نشوة من أي ماء ، وتجمد ذكريات جيرانك على لحظـــة ابتسام وشباب . ويزحف الخيال عن بعد فينضر الصخرة الجرداء في قريتك ويجدد الزوايا المهترئة من البيت ويفجر البئر الشحيحة ويمسح على حسد الجيران فاذا الكون الفردوسي كلـه بلدك .. بل بيتك انت من البلد بل مقعدك انت من البيت .

على انك في كثير من الاحيان بالمقابـــل تكون كثير القسوة عـلى بلدك تضخم عند انفك نقائصه وتشكو صغره وجوه الرتيب ، وتسحق تحت اسنانك كرهه .. فاذا ذكرت بلداً آخر ركضت شياطين المقارنة لتنصب لك لوحة تجاه لوحة :

تسمع عن الارض التي تزحف الى السماء شجراً وخضرة وثلوجاً في سويسرا ، عن القمم البنفسجية ، باللبنفسج ! وعن البحيرات الزرقاء احلى من زرقة العيون ، وعن البيوت القرميدية كشلال الزهر على السفوح ، كل السفوح . تسمع ذلك فتقول : متى يابلادي ؟

وتمشي في الطريق بروما او لندن أو باريس فتمتلىء عينك بما نفض الازميل وما خلق وعـــلى كل رصيف وتعييك متاحف اللوفر والفاتيكان وفلورنسا والاسكوريال .. تعيي عينيك لونا وفنا .. فتعبس وتغص : متى يابلادي ؟

وتنتقل بين دوسلدورف ومانشستر وباكو وشيكاغو فاذا

انوف المعامل في الجو تبصق سوادا و كآبة، والعمال كاطياف العبيد الاوائل يسرعون في الضباب ليحتلوا مكانهم من الآلات والانتاج .. فتهتف متى يابلادي ؟

وتقصد انكلترا او امريكا او فرنسا او المانيا للعلم فتدهشك الابواب الضخمة المفتحة بكل مكان . وانت لاتشعر انــك صغير صغير الا هنالك عند تلك الابواب . فتصيح برغمك : متى يابلادي ؟

انا بيني وبينك شربتها هذه الحسرات جميعاً ولكني تعلمت متأخراً ان من الممكن ان يزحف الشجر في بلادي الى السماء وتملىء الدروب بتهاويل الفنون وتحتجب الشمس بالحلك الاسود وتعلمت ان العمل يصنع الوطن ، لابد من ان امسك بالمعول، بالرفش ، بالمطرة ، بالقلم ، باي شيء وأعمل . انجهود خمسة قرون مرهقة هي التي صنعت هذا الغرب ..

يروون انه في القديم هبط احدى القرى في ساحلنا ساحر زعم ان فيها كنزا اصفر وانفق الرجل ايامــه يقرأ التعاويذ وينشر البخور عبثاً بكل زاوية ، ما كان هنالــك من كنز مرصود ولا هتف الذهب لعينيه قط .. ودب اليأس اخيراً في نفسه فزرع في بعض الحفر التي حفرها غصن ليمون ، لم يكن في ساحلنا ليمون .. ولا ليمونة .. وقد قلده في السنة التالية جاره ثم جيرانه . ويقولون انه مايزال يطل من وراء الغيب كل سنة في موسم القطاف ويهمس للناس :

اما قلت لكم ان في ارضكم كنزا اصفر ؟

اجل ان في كل ارض كنزا ولكن يجب ان نعرف كيف نستخرجه من الارض ..

يابلادي ؟

الثورة

يقولون ان بعض الناس يسري اللهب في شرايينهم فهم ابداً نقمة على كل شيء وابداً ثورة . وبعض يسيل الجليد في اعصابهم، أتعرف صقيع الجليد ؟ وهم يقـــولون ايضاً ان الثورة اخت الشباب.. وانتظر، تثلم السنون حـــد اعصابك فإذا انت في الشيخوخة ترقب الاحداث بعين الحكيم التي لا تعبأ بشيء ولا تثور لشيء .

أنا ، بيني وبينك ، اكفر بتلك الحكمة الزائفة التي يجرها هدوء الشيخوخة ، انها هدوء الموت . واذا شئت ان اكون اكثر صدقاً معك ، قلت اني امامها امجد الثورة ، افضل خصبها واشتهي التمرد المبدع . المبـــدعون الكبار كانوا ثواراً ، الانبياء ما كانت رسالاتهم إلا ثورات ، رواد العلم العظام كانت اعمالهم ثورة متصلة .. لو لم تتمرد يد العامل على النول ما اخترعت آلة النسيج ، ولو لم يثر الرسول العربي على الاصنام ما استقام الاسلام ، ولو لم ينكر غاليله باصرار ثبـــات الارض لبقي الكون الى اليوم ثابتاً لا يتزحزح ، حتى الحياة نفسها تتجـدد دوما . ألست ترى قميص الربيع يثور بالارض كل عام ؟

على انك في حاجة لان تعرف الحد الفاصل بين ضرورة الثورة وضرورة الهدوء . انت لا تستطيع ان تكون ثائراً ابداً دون أن تفقد الكثير من حكمتك ، ولا يستطيـــع صديقك ان يتمرد دوما دون ان يدفع الثمن من سعادته .. وأنا بالمقابل لا استطيع ان اعيش كما عاش جدي .. يا بعد ما بيني وبينه !. ولا يستطيع احدنا ان يتحجر فتركض الدنيا امامه ويبقى حيث كان امس وامس الاول .

نحن ابداً في حاجة لايجاد التناسق بيننا وبين الحياة المتطورة . ان جمال اللوحة في انسجام الوانها فلا يصرخ لون بلون . وروعة اللحن في تناغمه فلا يذشز وتر عن وتر . انت نفسك تتناسب مع الجو فتلبس للشتاء ما للشتاء وما للصيف للصيف ، أوليس

هذا ميزان الثورة العدل ؟ وانت مهما ثرت فانك تظل تعرف انك لست بالوحيد على الارض فلا يمكن ان تسير الارض دوما كما تريد ومهما تجمدت فان الحياة حركة باستطاعتك ان تجرها معك دون ان تتحطم بك العجلات .

إن قصة الحياة كلها ليست اكثر من محاولة للتناسق الدائم بين قوى الثورة وقوى الهدوء . على ان جحيم التمرد يبقى دوما اشهى من صقيع الجمود!.

يزعمون في الاقاصيص ان فتى اعيا اباه واهل الضيعة تمرداً كان لا يرضيه شيء . ينعي على الحراث كيف يحرث ، ويثور على طريقة الصلاة . كان يريد للارض ان تنبت خمس مرات في السنة ، وللحصان ان يصل به كالطير الى القمة البعيدة . كان يقول لاهل الضيعة لقد نظرت إليكم اعين الميدوزا ، تلك الاعين الرهيبة التي لا تنظر الى شيء الا حولته حجراً لا يحول ... واجتمعت الضيعة اخيراً في الساحة الكبرى ، وقررت نفي الفتى ، فتركها ليضرب في الافق المجهول . خاض البحار السبعة . أحب . سرق . قاتل مع أناس لا يعرفهم . وغامر في التجارة غرق . عرف عضة الجوع الطويل سنين وسنين . وذات يوم شهد الناس عجوزاً يجر اقدامه الى القرية ويقف عند بيت أبيه ليلمس حجارته . ولما سألوه ما الذي اعاده قال :

— لقد شهدت عيني الميدوزا ... لقد تحجرت !.
وقال فتى ثائر جديد في القوم :
— وماذا عليه ان يرجع ؟ أليس على المرء ان يملأ حياته ؟
أجل على المرء ان يملأ حياته .. تلك هي القصة **الابدية** .

الآخرون

الناس ، تلفت حولك ترهم . مد بصرك مع الياسمينة من الشباك او عانق شجرة المنعطف او افتح دكانك عـــلى الدرب تصطدم بهم جموعاً بعد جموع. انهم ينبعون كالمدالراعف من حيث لاتدري ، ويمرون بك اشتاتاً ثم يغيبون الى حيث لا تدري ،كالظلال، كالخاطرة العابرة .

بعضهم يثير في جبينك صورة حشرة ، وبعض يبعث فيك

مايبعث الناقوس في النساك ، وجماعة كجرعة المـــاء الفاتر أو ومضة اليراعة ، وآخرون تغمض عينيك لمرآهم .. تريد ان تحتفظ فيها بشيء ، اتعرف كيف تغص الفراشة بذكرى زهرة ؟

هؤلاء الناس .. انت تعيش برغمك - او بطوعك - فيهم وتغلق الباب عليـــك وترخي الستائر .. حتى ستائر قلبك ولكنهم يظلون يصخبون بكل جانح منك بكل ضلــــع كما يصخب الشارع يوم عيد .

أنت وانا نعرف هذه الحقيقة ، ومع هذا فنحن بيني وبينك نتناساها دوما ، نمسحها كما تمد الغيمة يدها فتمسح القمر .. تنسى انت انك لاتبلغ اكثر من مـــتر وسبعين سنتمترا في الطول فانت تفكر وتقيس الناس كما لو كنت في طول عمالقة الاساطير الذين كان احدهم يتناول الحوت من البحر فيشويه في كبد الشمس .. ليأكل. وانسى انا اني عدة لترات من الماء وشيء من الفوسفات وبعض المعادن سويت انساناً فانا أقدر وادبر كما لو كنت فرعون الدهور. والناس ، كل الناس ، بعضهم رقيق وبعض حجاب وبعض حملة الهودج ..

وتدور الدنيا بي وبك او ندور بها وتصطدم بهذه الصفصافة وبصخرة الوادي وبلسان الجار وتظل مـــع ذلك انت وانا نحسب انا مركز الكون .. وان النجم انما يدور من اجلنا. ولي أو لك فقط تنبت زهرة الحقل وتسيل الثمار عسلا وينحت الازميل ماهو ناحت .

نحن... لكل منا نافذة، الوردية فلو نزلت قليلاً الى الارض، الى حيث يدرج الناس لو توسدت التراب الذي تراهم يتوسدون ومشيت عـــلى الرصيف الذي يمشون، لو جربت ان تنظر من الزوايا التي ينظرون منها إذن لرأيت أنك لست أطول ساقاً ولا أضخم رأساً وانك، شئت أم لم تشأ، على مدى واحد مثلهم من الخير والشر ومن السعي للسعادة.

« هل تعتقد انك أصفى معدناً من الياباني ؟ ان الياباني المحافظ، على استعداد لقتلك لو رآك ترقص مع سيدة يابانية. هل تعتبر نفسك ارقى من الهندوكي ؟ هـــذا ظنك انت اما الهندوكي فيشعر بسموه عليك حتى انه لايمس طعاماً وقع عليه ظلك! وهل تظن انك ارفع قدراً من الاسكيمو انت مخطىء مرة ثالثة ان الاسكيمو يطلقون عـــلى طائفة من مواطنيهم المحتقرين الكسالى الذين لايصلحون لشـــيء اقب : « الرجال البيض »! وكلمة يهودي تعني بمختلف اللغات الكثير من السوء ولكن اليهود يعتبرون انفسهم شعب الله المختار.. وكذلك الالمان وكذلك الانكليز.

وما يجري في الشعوب يجري في صدور الافراد. فلو نزلت من نافذتك الوردية الى الارض، لو نزلت انت تعيش في الناس، ويعيش الناس فيك برغمك فلا بد ان تفهمهم.

يزعمون ان ملكا تفجرت في ارضه نبعة، كنشوة الشفة، جرعة منها. واقبل الناس على مزارب العين كاسراب الطير يشربون

يعبون مل الاجراف ولكن الذين لم يشربوا لاحظوا وبالدهشة ان الشاربين قد اصيبوا بالجنون. ونما الخبر الى الملـــك فأعلن بالابواق والطبول تحريم النبعة. ولكن الحراس الذين اقامهم عليها شربوا منها. وكان الناس يتسللون في العتمة ليشتفوا منها جرعة. ويسرون شرب الماء المحرم ويدفعون فيه ما يملكون.. حتى الوزير جاء إلى مليكه ذات يوم يترنح ويرقص. واصر المليك على موقفه العاقل فكان يشرب من الماء الذي ادخر ويقف في نافذته وينظر الى جنون الناس فيأسف او يضحك. وذات يوم شهد تغامز الناس عليه ثم امتداد الاصابع نحوه حتى احس بها امام انفه. انه لم يعد العاقل الوحيد ولكن المجنون الوحيد! فصاح باول حارس رآه: ناولني كاسك!.

ونحن، بيني وبينك، لا بد لنـــا ان نعيش في الآخرين وبالآخرين حتى في الجنون..

فلو نزلت!.

نبض الحياة

هل خطر في بالك ، في لحظة تأمل ، أن تنصت لهذه الضجة الخرساء التي ينبض بها كيانك وتتمزق بها الدنيا الموارة حوالك؟

أن تتأمل الحياة في سيرها السرمدي ؟

أنا بيني وبينك، ما فعلت ذلك إلا تملكني رعب حبيب !

أتصور الآلة التي هي (أنا) ورهبتها او أصرت ملايين الخلايا فيها على الضجيج ، وألوف الشرايين والاعصاب التي تعمل

دون انقطاع على الغناء!.. وانظر حولي إلى هـذه الوجوه في المقهى وفي الدرب كيف تتجلى رفــة الحياة فيها بألف لون وألف شكل . وتدرج الحــقول أمامي بما عليها ، كالنشيد المسكر، .. كل زهرة فيها، رغم نشوة العطر أشبه، بعامل يعمل تحت الشمس وكل عشب وكل غصن ..

أنظر هذا كله فأعلم أن أعمق أسرار الحياة أنها ثورة عـلى الجمود . أنها عمل متصل . أنها دعوة لابداع شيء !..

ولهذا يدهمنا الفرح ، كدفقة الربيــع حين نتم عملاً من الأعمال ؟! ويمتصنا الملل ، كالصدأ ، حين نتمطى عــلى مقعد المقهى دون شيء !!

نحن جزء من هـذه الطبيعة العاملة ولهذا امتدت الأيدي فينا ، وفتحت الأعين وتفصلت الارجل .. وكان كل ذلـك فينا لنعمل أي شيء !!

أهنالك جهود ضائعة ، كسفح الماء في الارض ؟ بــلى ! ولكن يجب ألا ننظر بعينين مظلمتين كأنهــما قطعتان من الفحم إلى الجهد الضائع ، نبذل الجهد كرة بعد أخرى ليس خسارة للبذل ولكن ربحاً له . أو ليست الطبيعة تفعل ذلك ؟ أليس تضج الشجرة بألف زهرة لتتكور في أغصانها عشرة أحقاق من العسل العطر ؟ وتنثر في البحر مليون بيضة لتتكون سمكة واحدة وتجسد الرؤوس بمائة فكرة ليكتب البقاء لفكرة ؟ إن روعة الحياة ليس فقط أنها عمل ولكن أنها عمل خصب !

من الحكايات أن أحـد الملوك ولي العرش في ريق الصبا فجمع علماء مملكته اليه وقال :

– أريد أن أقوم بما لم يقم به ملك قبلي . إجمعوا الى أخبار ملوك العالمين لأنظر فيها .

وتقدم شيخ العلماء يقول : بوركت إرادتك ياصاحب الجلالة ولكن .. لكن جمع أخبار الدنيا يحتاج الى وقت طويل .. إلى عشرين سنة .. على ما يصل اليه اجتهادي المحدود .

– لكم ذلك وابدأوا منذ الساعة !

بعد عشرين سنة قطعت الطرقات إلى القصر الملكي قافلة من سبعين جملاً تحمل الكتب . ومثل العلماء أمام الملك الكهل:

– هـذه إرادتك المطاعة ياصاحب الجلالة : سبعة آلاف مجلد تضم تاريخ الدنيا !

– سبعة آلاف مجلد ؟ أتحسبون أن لي من الوقت ، مع كثرة الولد والمشاكل وتكالب الاعداء ، مايتسع لقراءة هذا الركام المرعب .. إذهبوا واختصروا هـذا كله .. وعجلوا ما استطعتم !

وعاد عريف العلماء بعـــد عشر سنوات يتبعه خمسة جمال تحمل التاريخ . فقال له الملك:

– ياصاحبي لقـد ضعف جسمي وهدت السنون والحروب قوتي فهلا اختصرت هذه المجلدات الخمسمائة ؟ هلا فعلت ؟

ومضت عشر سنوات اخرى وجاء كبير العلماء :

ـ اليك يامولاي ما تشتهي! فهـذا فيل على بابك يتهادى بتاريخ الدنيا بتاريخ الدنيا في ثلاثين مجلداً !

وابتسم الملك من جديد : ياصاحبي العزيز لقد كل بصري وذهب جلدي . ومن لي بقراءة صفحاتك العزيزة . هل لـك بخدمة أخيرة لي ؟ اختصرها ما استطعت ! فاني أحرص عـــلى معرفة شيء قبل الموت . .

ومضت خمس سنوات . ووقف العالم الشيخ بباب القصر يجر حماراً عليه مجلد ضخم . وما كاد الحرس يرونه حتى قالوا ! :

ـ اسرع ! فإن صاحب الجلالة يحتضر !!

وارتسمت ابتسامة في عيني الملك الخائرتين حين رآه قال :

ـ قد افترس عمرك هذا المجلد ؟ ولكني أنا أيضاً ياعزيزي فراش الموت ؟.. وسأموت دون أن أعرف شيئاً !

فقال العالم الشيخ :

ـ لا يامولاي ! باستطاعتي أن ألخص الك هـذا كله أيضاً وفي ثلاث كلمات :

بلى ! يولد الانسان ويعمل ويموت !

ولم يسمع الملك الكلمة الاخيرة .. لأنه كان مات !

أما كان باستطاعة كبير العلماء بيني وبينك أن يقول بكلمة واحدة : الحياة عمل خصب !!

العم الخضب

في صغري ، حين كانت رجلي أقصر من ان تجاوز مدخل حارتنا ، كان السندباد ، سندباد الف ليلة ، الذي يقتحم البحار السبعة ، وانت تعرفه ، كان جزءاً من العالم الذي يملأ نفسي ، كان احلى ما يروقني فيه ان المغامرة كانت كل كيانه ، و كنت اتوقع منه دوما ان يبدأ النضال من جديد بلون جديد .. وكان يبدأ !!

كان لا ينتهي من مغامرة إلا على موعــــد مع اخرى .
يعانق الموجة القلقة حتى لا تربطه بالحياة غير خشبة من السفينة الغارقة ، ويجوع حتى تجف احشاؤه على الضلوع اليابسة ،ومع ذلك فهو ابداً تطلع لالوان جديدة من التجارب ، وهو ابداً توق متصل .

يقع على كنوز الارض يوما ويشحذ يوما آخر ، يعقـد التاج على مفرقه في بعض الجزر - الأشباح مرة وتوقش السياط ظهره في قافلة العبيد مرة اخرى ؛ يمضغه الرعب مضغـــا تارة ويقحم الكهوف الرهيبـــة على الجن تارات . يساق للموت ، يحب ، يظمأ ، يبكي ،يبارز ، يعود فاشلا دامي الا كف والصدر ولكن .. ليبدأ ايضا وايضا من جديد !

أنا ، بيني وبينك ، لا استطيـع حتى اليوم ان اطرد السندباد من دمي . لا استطيـع ان انسى اعجابي - الطفل به . لقد كان طيفه يكبر معي وقد علمني بين الذي علمني ان ابحث عن خصب الحياة وامتلائها لا عن عدد ايامها ، علمني ان اكون على استعداد دوما لأن ابدأ و كأن الأمس الفاشل كان امسا لغيري ، علمني ان النضال نشوة يا خجلة الكروم عندها ! وان الجهد القتيل في العضلات والاعصاب هو الموت ، وصقيع الموت !!

الكثيرون حولي وحولك يجرون حياتهم ، كحمل الحطب اليابس ، ويلقون بها منذ مطلع الشباب على سكة التشابه الرتيب فهي يوم مكرور عدة آلاف من المرات ، كناعورة الطاحون

تئن في محورها إلى الابد !! ترى ما قيمة حياة ليست كل لحظة منها مفاجأة جديدة وكل لفتة منها تجربة وغمزة اغراء ؟

ويدعو الناس بعضهم لبعض بطـــول العمر أليس أحلى وأفضل منه طيب العمر وخصب العمر وامتلاء العمر ؟ وهل منحنا نعمة الحياة الا لنلون كل يوم منهـــا بلون ، كقناديل الشموع التي يطلقها السويسريون في الليالي ، على هدوء البحيرات الجبلية فاذا هي حلم هارب او جانب من حلم ؟ وهل تستحق النضال حياة لا نتذوق فيها كل يوم متعة تزيد اتصالنا بها قوة ، وجديداً يزيد شعورنا بها عمقا وعنفا ؟

في مثل هذه الحياة الخصبة يستوى النصر والفشل ما دمنا على استعداد ابداً لمعاودة النضال من جديد وتصبح القيمـــة الكبرى لما نبذل من جهد في تذوق الحياة قطرة قطرة لا لما نكسب فيها . بل تصبح الحياة نفسها غاية لا طريقا لغاية .

يحكون ان ناسكا دعا ربه ان يطيل له عمره فرف في محرابه احد الملائكة قال :

قد استجاب ربك دعاءك أيها الشيخ شريطة ان تقول لي ما حاجتك بطول العمر ؟ اتريد ان تفلح الارض وتزرع الحب ؟ قال : لا

— أتريد ان تتزوج وتنجب البنين ؟

— أتريد ان تغامر ؟ ان تركب البحر ؟ ان تبتكر ؟ ان تصلح الدنيا ؟ ان تعب من لذائذ الارض ؟

– لا ! لا ! لا !

قال الملك .. إذن فما حاجتك للعمر الطويل ؟

* * *

وأنت بعد ، لو خيرت بين حياة طويلة مكرورة الأيام وبين حياة قصيرة ملأى حتى الفيض . اما كنت تختار الثانية؟!

إذن فتحية على البعد يا سندباد !

أنا

يروى الاغريق فيما سطروا من اسطورة ان نار كيس كان فتى الفتيان جمالاً وفتنة عين . وقد دلّه الكثيرات بحبه دون ان يمس قلبه شيء من الشرر او اللهب .. حتى إذا كان ذات يوم في الصيد واقبل على غدير صاف كعين الديك، وانحنى يعب منه فاذا به يفاجأ بعينيه تنعكسان على صفحة الماء ساحرتين كأكثر ما يكون السحر تدميرا وجميلتين كأكثر ما يكون الجمال ايلاما .. بهت .

نسي شرب الماء واخذ يتأمل صورته .. وترك الغدير لحظة ثم مالبث ان عاد اليه يتأمل ثم انتزع نفسه مرة واخرى من جوار الغدير ولكنه كان يجد نفسه دوما ، من جديد، امام الماء يتأمل.. وخاطب ناركيس ذلك الطيف الساحر فلم يسمع همسه ومدشفته يتلمسه فاذا به ابادید في الماء ، تنداح وتتكسر كرؤى الجنون .

ولازم ناركسيس الغدير يوما بعد يوم يتأمل نفسه حتى اخذ الهزال يمتص نضرته .. وذبل وذبل حتى اذا لفظ النفس الاخير لم تجد عرائس الغاب شيئا منه ولكن وجدن مكانه نرجسة تظل بوجهها على الماء .

نحن، بيني وبينك، كلنا ناركيس نحن نحب انفسنا نعجب بما نعمل وندافع، كاحتضان الام لوليدها عما نرى من رأى. بل ونشتهي كل زهرة في الرابية، ونطرى احيانا قوامنا الاهيف والثوب الذي انتزع لنا امس اعجاب الحاسدات .. كلنا مصابون بهذه النارسيسة نذبل امامها وندوب حتى النفس الاخير . هل احصيت من قبيل الصدفة كم مرة تقول «أنا» في حديثك ؟ هل لاحظت مرة كيف تدير الحديث مع الناس لتنتهي الى البحث في شؤونك؟ هل خطر لك ان تحلل اعمال يوم واحد من ايامك لتعرف كم انت اناني ؟ واناني مسرف في الانانية انا مثلك ايضاً وابناء حارتك مثلك وجارك في المتجر ورفيقك كذلك في المقهى ان خيالنا جميعا مملوء بنا فهو يضيق حتى بطيف غريب حتى نحبهم انما نتقبلهم لانهم اضحوا جزءا منا ونحن نعشق فيهم على الغالب الذين مانريد لا الذي يهتف فيهم من سحر .. كم مرة اعترف العشاق بذلك

أأزعم لك ان الانانيه شيء حقير ؟ كلا ولعلي بالعكس ازعم ان حب الذات امر طبيعي وانه قوام الشخصية الانسانية وانه السبيل الى التميز والتفوق وانه وسيلة الدفاع الاخير امـــام هيولية القطيع . ولكن .. مهلا اتعيش انت لوحدك ؟ الكون حولك يعج بالانانيات الاخرى انها تصرخ في كل وجه حولك : في عين خبازك وفي شفة رئيسك وفي اعمال مختار الضيعة وناطور البيدر .. ان نار كيس لا يستطيع ان ينصرف لذاته دون ان تعكر عليه صفوا الماء صور الآخرين لابد من ان يحترم الانانيات التي تطوقه بكل صوب لابد ن ينسجم
معها ويعترف بها

ان السبيل الوحيد هو ان تحتضن الاخرين في ذاتك ان تحبهم وان تريد لهم ماتريد لنفسك . اهي نصيحة؟ ما ابعدني عن ذلك ولكنها الحقيقة التي اوردتها الكتب الهندوكية منذ ثلاثة الاف سنة وعلمها زاراداشت المجوس في بلاد فارس منذ ستة وعشرين قرنا ووعظ كونفوشيوس اهل الصين بعد ذلك ولقنها مبدع الطاوية لتلاميذه في وادي هان وبشر بها بوذا على ضفاف نهر الغانج وسجلها موسى في الوصايا العشر ونادى بها السيد المسيح على تلال القدس واعلنها الرسول العربي باسم رب العالمين .

ان نصف مشاكل الدنيا إنما تنبع من تجاهلنا لهذه الحقيقة إن كلمة أنا لا يمكن ان تختفي على شفاهنا ، ولكن يجب ان

نعرف كيف نضع بجانبها كلمة أنت وهو .. والذي روى لي
قصة ناركيس قال لي في النهاية :

لقد ظل يحاول تقبيل شفته حتى ذبل دونهـا ، أتراه كان
يموت لو هام بغير ذاته؟ لو تاق لشفة اخرى ؟

نعم يموت !



Princeton University Library
32101 072574856